سلسلة أوراق من التاريخ

١٠

قضايا من التاريخ

شاكر مصطفى



ريــع الــدّار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـبرقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ـ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

قضايا من التاريخ

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ

١٠

قضايا من التاريخ

شاكر مصطفى

قضايا من التاريخ / شاكر مصطفى . ـــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٦. -
١٤٠ ص ؛ ٢٠ سم . (سلسلة أوراق من التاريخ ؛ ١٠) .

١ـ ٩٢٠ ع م ص ط ق ٢ ـــ ٩٠٢ م ص ط ق ٣ ـــ العنوان
٤ـ مصطفى ٥ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ٥٩ / ١/ ١٩٩٦ رقم الإصدار ٦٩٧

كلمة أولــى

يقولون إنه سبحانه وتعالى حين فرق الأرزاق على بابه ، ما رضي أحد من الناس برزقه . كلهم أخذوا يشكون . وكلهم أخذوا يصرخون يريدون المزيد . أما حين فرق العقول فما بقى على بابه أحد . كل أخذ عقله وانطلق ؛ هارباً راضياً . وحتى اليوم ما يزال الزحام على الرزق قائماً وتباين الآراء وتبلبلها بالمقابل مستمراً . « حكمة بالغة فما تغنى النذر » !

والأمر هين حين يكون الاختلاف في الرأي بين اثنين أو بين قبضة من الناس ... لكن التاريخ عرف أزمات كبيرة كان تباين الآراء فيها سواء لدى الجموع أو مع الحكام أو مع رجال الدين المتنفذين يشكل تيارات من الأهواء العمياء توصل إلى السجن الأبدي إن لم يكن إلى خشبة الإعدام ويحسب الناس أنهم منها أمام قضايا مصيرية !

هنا يصبح التاريخ كعقدة الأفاعي ويتحول سيره الواني إلى غضب مدمر وإلى صراخ تشترك فيه الأفواه والنعال !

وفي هذه الصفحات بعض قضايا التاريخ .

شاكر



قضايا ... حين يغضب التاريخ

هل يتأزم التاريخ؟ بلى! ويثور ويغضب وينتقم! وما دام التاريخ هو الناس في مضطرب الحياة. هو أنا وأنت وأصدقاؤك والحاكم والنظام العام. فسوف يكون أزمة وغضب وتكون ثورة أيضاً وانتقام!... ثم لحظات في التاريخ. يمتزج فيها العقل بالجنون. وتصبح العيون حمراء كالكرز. وتمسي الجموع كحقول السنابل تذهب بها موجة وتلويها أخرى...

التاريخ لا يمشي بموسيقى الكعوب العالية دوماً، ولا يحفظ مباذل هذا الملك أو ذاك، ليتسلى بها فقط. ولا يجمع كجواسيس المخابرات خبراً من هنا يقاطعه بخبر من هناك لتنسج خارطة فكرك السياسي...

إنه يلبس أحياناً أهاب الشيطان ليلاحق من شاء إلى المحاكمة والإعدام... صفحات التاريخ المنغرسة كالأدواح الضخمة في صدورنا تزهر الورد والبنفسج والياسمين كما تزهر الأزهار المفترسة، ونباتات جهنم! قضايا كبرى عرفها التاريخ كانت عواصف من الانفعالات الجماهيرية والتهب فيها الناس بالغضب، بالحب، بالنقمة على الجريمة، بالثورة الدينية وبكل مثير... قد يمتزج فيها الخير والشر وتصطرع الفضيلة مع الرذيلة والشجاعة مع الجبن فالناس فريقان مشبعان حتى العظم حقداً وسكاكين... وشيئاً من عقل قليل!

اللائحة السوداء التي تضم هذه القضايا الكبرى مجلدات ضخمة في ذيل كل صفحة منه كلمة «يتبع» ولو سألت متى بدأت فربما كان ذلك ذات

يوم من أيام الجنة ، إذ وسوس الشيطان للمأسوف على ذكائه أبينا آدم قال : « يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . وعصى آدم ربه فغوى » ... « وبدت لآدم وحواء سوأتهما » وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين ؟ ... قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ... قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين .. » .

تلك كانت أول القضايا الكبرى وأول المحاكمات . وقضى الله تعالى فيها وهو أحسن الحاكمين ، فنحن ندفع ثمنها إلى اليوم ... وأما آخر هذه القضايا فلا يحيط بها محيط إنها من الكثرة بحيث لا تدري ما تذكر وما تدع . ولكل امرئ معياره القياسي . ولكل قضاياه . وليس ينتهي الإحصاء ! إلا أن أكثر القضايا إثارة هي تلك التي تمس الدين أو تمس النظام العام كالجرائم والمحاكمات السياسية ... القوى التي تجند ، تحشد ، تعبأ بالانفعال ، وتوضع على ألسنتها الشعارات ، تشبه السيل الذي يأتي على كل شيء ... إنها أزمنة الأزمات . وأزمنة المرارة التي لا تذهب دون أن تترك آثارها كالجدري في الضمير العميق للشعوب ! ...

في القضايا الكبرى كما في الصغرى يطلب العدالة . والغريب أن عين العدالة عمياء . والميزان الذي ترفعه بيدها في صدر المحكمة لا يَـزِنُ إلا ما يوضع فيه ! وإذا كانت بعض الجرائم الجنائية واضحة . وهي نتيجة لحظات من الهفوة اصطرع فيها الخير والشر . وخرج الشيطان منها ضاحكاً يمد لسانه . فبعض القضايا العقائدية أقل وضوحاً في الخروج عليها من ذا الذي يستطيع الفصل العدل فيه ؟ إن العدالة فيها تنحرف مرغمة إلى التحيز . فإذا وصلت القضايا السياسية فهناك الدوار العظيم ... والخلاف العظيم ! هناك أيتها العدالة كم من المظالم ترتكب باسمك !

على أن القضايا الكبرى والمحاكمات ذات الصخب المجلجل، في كل الأحوال، مواقف للشعوب التي واجهتها. بعضها يرسم أحياناً مستقبلها، وبعض يشوه فترة زمنية من فتراتها. وبعض يكشف قصور النظر الإنساني، وتغير صورة العدالة من عصر إلى عصر! وبعض يعبر عن لحظة من لحظات المجد أو الخزي من التاريخ، وعن تخلخل المؤسسات الاجتماعية... التي نتصور أنها خالدة... صحيح أن معظم القضايا قد تبهت على البعد، تفقد حرارتها. فتصبح غير ذات موضوع. وقد نسخر منها فيما بعد. ولكن يبقى منها شيء رغم كل شيء؟...

ما هو هذا الشيء؟ قد يكون نسبية الأحكام والقوانين فما هو خطأ الآن أو هنا هو الحسن كله بعد حين أو في مكان آخر! وقد يكون المزيد من الإيمان بالحرية! وضرورتها المطلقة. فالظلم السياسي لا يطفىء نجمة الفجر! وقد يكون كشف التضليل الذي يحيل الجماهير أعمدة من ملح وأفواهاً تصيح!!.. شاعرنا العتيد أحمد شوقي في مسرحية كليوبترا يقول:

انظري الشعب «دمون»	كيـف يوحــون إليــه
ملأ الجو هتافـــاً	بحيـــاتي قاتليـــه
يالـــه من ببغـــاء	عقلـه في أذنيـــه!

والغريب، في القضايا السياسية الكبرى أن بعض الحكام يأكلون من لحومهم وهم يحسبون أنهم يأكلون من لحوم الآخرين، إنهم يريدون الشعب على أن يكون كالكورس لهم. ويصوغونه على منهج هايدلبرغ... تلك المدينة الألمانية التي تطفي الأنوار فيها مرة في السنة. وتوجه الكشافات إلى قلعتها العالية. وبصوت واحد ينبعث من كل شوارع المدينة ونوافذها وساحاتها نشيد واحد!... نشيد القلعة الخالدة! مع أن هؤلاء الحكام يعلمون... يعلمون أنهم ليسوا أكثر من ورقة في السجل الكبير...

وعلى أي حال فإن لحظات التأزم الغضب العام في التاريخ كثيرة، كثيرة. وليس من الضروري أبداً أن يكون التاريخ على حق في غضبته أو على باطل. فكم من غضبة فيه كانت زائفة. وكم شوهت فيه من قضية. وكم من محاكمة كانت العدالة هي الضحية القتيل!

الأحاديث المقبلة ستكون أوراقاً منتزعة من هذا السجل. تحيي بعض القضايا الكبرى ذات الأجراس والأصداء. وبعض المحاكمات التي شغلت الناس ذات يوم. وتركت بعضها بصماتها كالجمر في ذاكرة الناس وفي التاريخ!... إنها حكاية بعض اللحظات حين يغضب التاريخ عن حق أو باطل على بعض المنكودين....

فإلى هؤلاء!....

الحلاج

منذ ألف ومائة سنة ، وفي بغداد التي كانت في ذلك الوقت عاصمة الدنيا ، سياسة وتجارة وعلماً وحركة كانت ثمة قضية كبرى تشغل الناس ، من قصر الخلافة حتى باعة الشواء في السوق والدباغون (شغب) أم الخليفة مشغولة بها والوزير علي بن عيسى تماماً كما كان يتحدث الدلال على الطريق ، والغزالون والشيخ أمام سارية المسجد والمكاري الخارج وراء القافلة والتاجر ومحتسب الدكاكين كلهم كانوا يلهجون باسم واحد كان القضية يومذاك هذا الاسم هو الحلاج !!

هو الحسين بن منصور الحلاج ! في مطالع القرن الرابع للهجرة كان الرجل يقارب الستين ولكنه كان يهرف أحياناً بكلمات يجازف بها كل المجازفة يحملها بعضهم محمل الهذيان والجنون فيهزون الرؤوس ويمضون ويحملها آخرون محمل الكفر ، فترتجف منهم حتى العظام . يقول الطرفان إنه صوفي ولكنهم يختلفون فيه فريقين : فريق يتجاوز به حدود البشر ليجعله من الابدال ! من الواصلين إلى الله مع ما يتبع ذلك من هالات التبريك والتقديس وفريق ... يود لو تسيح أقدامه في الأرض سيحاً أو يشفي النفس بإراقة دمه ! ... وبين الفريقين يقف الشيخ وحيداً وحيداً في منتهى المحنة . كل الألسنة تتحدث بأمره ....

كان ابن مناج عربياً من الأحواز ، ونشأ في واسط في قلب العراق الأدنى ، وبها لبس خرقة الصوفية وسلك بين السالكين وحج إلى مكة ثم عاد

إلى الأهواز آخذاً في الوعظ بالحلقات وعلى الطرقات ... كان واحداً من مئات من أمثاله ممن لا يأبه بهم أحد ... الزهاد والمتصوفة كثيرون حتى ليبارون أهل الشحاذة ! ...

على أن الحلاج سرعان ما تميز بهذيانه الجريء ، وحين ثار المتصوفة على جرأته نبذ خرقته الصوفية ومزق المرقعة . كان ذلك يعني نبذ الكلام المعمى وطريقة السر ليتجرد بنفسه العارية أمام الناس مستهدفاً لتأويلاتهم . أخذ يتكلم بحرية مع الناس جميعاً ، مع الكتاب والباعة وأهل الحرف وبدأ انقسام الرأي في أمره . ولم يكن غريباً أن يقف موظفو الخراج والمرابون وكبار التجار ضد هذا الصوفي الغريب وأن يثيروا عليه شغب العامة وأن يتهموه بالشعبذة والاحتيال وهم يرونه ينثر الأغذية والدراهم على الفقراء والمعوقين . ويصرخ هنا وهناك : دعوى العلم بالله جهل . لا تغتر بالله . إذا استولى الله على قلب أخلاه عن غيره . وإذا لازم أحداً أغناه عمن سواه ....

وضايقوه في الأهواز فارتحل إلى خراسان جوالاً بين المدن والثغور . يعظ هنا ، يرابط هناك ، ينتقل بين بوابات المدن ، ينام على الطرقات . خمس سنوات ، إلى أن وجد ظلاً حامياً في الوزير ببغداد فعاد إليها بأهله ، حين حج هذه المرة ، قصد الكعبة معه أربعمائة من المريدين وزادت عليه بالمقابل الاتهامات بالأعمال السحرية والاتصال بالجان والشيطان ! صار قضية بين أنصاره وأعدائه !

وأصابه الضيق مرة أخرى فانطلق في رحلة ثانية بعيدة ركب البحر إلى الهند ، خاض أديرتها البوذية ، صعد في نهر السند تحاور مع المانويين ، تعرف إلى الزهاد الهنود ، زار كشمير في أعالي الجبال ، رافق القوافل إلى أطراف الصين ، عاش مع البوذيين والشامانيين في أرض الترك ، وامتلأت نفسه بالله

والإنسان حتى الفيض، فعاد إلى مكة مرة ثالثة ... كانت حجته الأخيرة ... التي صاح فيها على عرفة صيحة مجلجلة:

لبيك! لبيك! وسأل الله أن يزيده فقراً وأن يزيده من الناس كرهاً ونبذاً... كان قد وصل المرحلة الأخيرة من جنون التصوف أو تصوف الجنون!

حين عاد إلى بغداد لم يتردد في أن يعلن رجاءه إلى أن يميته كافراً بالإسلام!!

وصار الناس يرونه على قارعة الطرقات يصيح: ياأهل الإسلام أغيثوني! فليس يتركني ونفسي فآنس بها وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها. ياأهل الإسلام إن الله أباح لكم دمي فاقتلوني! اقتلوني تؤجروا وأستريح... على دين الصليب يكون موتي!

وثار العامة بالرجل ولحقوه تارة بالحجارة وتارة بالطرد وتارة بالصبية. وثار أكثر منهم أهل الدين وتحرك القاضي محمد بن داوود الظاهري الشاعر الكاتب فرفع أمره إلى القضاة ببغداد مطالباً بقتله... واجتمع القضاة للنظر في الطلب الذي وقعه عدد من العلماء، في جامع المنصور، أكبر جوامع بغداد، ويقولون أن الشبلي الشاعر الصوفي سأله هناك من هو: فقال: وقد أخفى وجهه بطرف كمه، أنا الحق! وهي كلمة فيها كل التجديف والاستهتار وأنه كان يقول: وهو يتوجه إلى الله: أعف عن الخلق ولا تعف عني وارحمهم ولا ترحمني!...

وكان مجلس القضاة يدين الحلاج لولا أن تخرج القاضي الشافعي ابن سريح وقال: هذا الوجد الصوفي لا يدخل في اختصاص المحاكم الشرعية! لا يدخل...

كان هذا القاضي في الواقع ينظر إلى أن عدداً من كبار القوم ومن الأمراء والولاة والأشراف كانوا يرون في هذا الرجل صورة القطب الصوفي الملهم

ويرون فيه النذير المطالب بإصلاح الأمور ودرء المفاسد وضد المظالم التي تصيب الناس في الخراج والضرائب ...

وأنقذ هذا كله الحلاج ولكن إلى حين ... صحيح أنه هرب بعد ذلك فاختفى في الأحواز ولكن أعداءه لم يكونوا بالقليلين ولم يكونوا بتاركيه ، وكان لهم من تدينهم ومن رعبهم منه ما يدفعهم لملاحقته من جديد وصدر الأمر هذه المرة من وزير الخليفة بالقبض عليه ... مع مريديه الأقربين ، اختفى الحلاج ثلاث سنوات من قبل أن تقبض عليه الشرطة وتسوقه إلى بغداد ! ... لكن قضيته هناك دامت تسع سنوات ...

عرض مصلوباً على الناس بحجة أنه من القرامطة ثم أطلقه قاضي القضاة ، ثم حبس في دار الخلافة فلاحقته الشائعات بأنه يمارس فيه الشعوذة والسحر ... وظلت تلاحقه حتى قدم للمحاكمة . كان خصومه هم الذين وصلوا إلى الحكم .

على سدة عالية جلس القضاة في قصر الخلافة عدة أيام يستمعون إلى عدد من الشهود بلغ فيما يقال ٨٤ شاهداً ونطق القاضي أبو عمر الحمادي بالحكم : الحلاج حلال الدم ! وفشلت جهود والدة الخليفة في إنقاذه ... وأسلم إلى رئيس الشرطة وعلى نعيق الأبواق ، في أحد الأصابيح سنة ٣٠٩هـ / ٩٢٢م ضرب الحلاج ألف سوط ، وقطعت يداه ورجلاه وصلب وما تزال فيه بقية حياة ...

حين لفظ أنفاسه صب عليه الزيت وأحرق بالنار وألقي برماده من أعلى المئذنة في نهر دجلة ... وانتهت بذلك القضية ـــ المأساة ! واستراحت بغداد ! ...

ابـن حنبل

إذا ذكر الإمام أحمد بن حنبل لدى الناس بادرت إلى الخاطر، مع الاسم، صورتان، كأنما هما لوازم هذا الاسم: أقسى الاضطهاد وأقصى الشدة في مقاومته، هذا الشيخ الذي مضى على موته ١١٧٤ سنة ما ينفك بين أصحاب المذاهب المنتشرة يحتفظ بمكانه الخاص لأنه كان، في عهده قضية إيمانية كبرى ذات ضحايا وشهداء وذيول...

عاش ابن حنبل عصر الزهو والألق من العصر العباسي كله. ولعله لهذا كانت قضيته قضية العصر كله... ولد زمن المهدي وكان طفلاً زمن الهادي وقد درس وتفقه زمن الرشيد والأمين وبرز أيام المأمون واضطهد زمن المعتصم والواثق وأخيراً زمن المتوكل... توفى عن سبع وسبعين سنة!...

وما عاش ابن حنبل عصر الزهو العباسي طولاً فقط ولكنه عاشه عرضاً كذلك، فما ترك قطراً في الإسلام سوى الأندلس إلا زاره. كان من شيمة العلماء الكبار في عصره أن يرتحلوا في طلب العلم فارتحل هذا الفتى العربي من شيبان وائل في الأرض. أسرته كانت تعيش في سرخس وكان أبوه الجندي والياً فيها فمات شاباً وولد ابن حنبل يتيماً في بغداد. ولكنه بعد أن طلب العلم في هذه العاصمة سافر يطلبه في الكوفة وفي البصرة ثم في مكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس والجزيرة وخراسان والجبال والأطراف... سافر إلى كل مكان سمع أن به عالماً يروي الحديث وروي عنه! مع القوافل سافر، وفي ضوء الأسرجة والشموع سافر، وعلى الاقدام. وفي

عواصف الرمال ولهب الشمس سافر ... كان جمع حديث رسول الله هوايته وجمع منه ما لا يحصى في كتابه « المسند » روى ثلاثين ألف حديث ... وثمة من يبالغ فيجعله يروي ألف ألف حديث ! قدرت كتبه يوم مات باثني عشر حملاً وعدلاً ما على ظهر كتاب منها حديث فلان ولا في بطنه حدثنا فلان وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب ....

هذا الطود من العلم والتقى اصطدم بالسلطة أو اصطدمت السلطة به وهو في قمة الشهرة والعطاء واجتماع طلبة العلم حوله ...

كان الخليفة المأمون يعاني من انصراف الناس عن دولته في السنوات الأخيرة من عهده .

ووجد أن يحمل الناس على مذهب المعتزلة ... يوجد به عصبية فكرية تستند إليها الدولة . وإذا لم يكن أحد يجادل في ما تؤمن به المعتزلة من القول بالتوحيد والعدل . فإنهم قد يجادلون ويجادلون كثيراً وكثيراً جداً ، في ما ينتهي إليه المعتزلة من الاستنتاجات العقلية والمنطقية من هذين المبدأين ...

وحين وصلوا الكلام كانت المشكلة . فالكلام لا يمكن أن يكون أزلياً قديماً إذن فهو محدث . ولما كان كل محدث مخلوقاً فكلام الله الذي هو القرآن مخلوق ...

بهذه البساطة المنطقية قال المعتزلة بخلق القرآن ... والمشكلة ليست جديدة ولا من ابتكار المعتزلة أو المأمون . إنها من المناقشات اللاهوتية القديمة . وقد قال بها غيلان الدمشقي والجعد بن درهم قبل قرن من ذلك وقتلاً وقال بها جهم بن الترمذي الذي قتل أواخر العهد الأموي وقال بها بشر المريسي أيام الرشيد . (ظل يدعو إليها أربعين سنة فلا يأبه له أحد . وقد هدده الخليفة بالقتل فتوارى وقال بها المرداد أبو موسى كبير المعتزلة بعد ذلك ... ولكنها أواخر زمن المأمون أخذت الشكل السياسي حين أعلنها عقيدة رسمية للدولة . كان

يقيس بها مدى الولاء له. ربط المشكلة الدينية ــ الإيمانية بالمشكلة السياسية. فانكشف له بعد ما بينه وبين الجمهور والناس... كان ذلك سنة ٢١٢ للهجرة!...

وحين رأى أن الناس أعظموا ذلك وأكبروه واضطربت العامة واشمأزت النفوس وكان البلد يفتتن «أمسك عن إلزام الناس بذلك ثم ترك بغداد سنة ٢١٥ إلى الشام ومصر وجبهة الروم. وفي سنة ٢١٨ قبيل وفاته بأشهر أربعة فقط كتب من دمشق إلى بغداد يطلب إلزام الناس بخلق القرآن وأخذ اعترافهم بذلك أخذاً إلا أن الجمهور الأعظم ــ حسب قوله ــ قاصر العقل يخطىء في فهم التوحيد!».

يومذاك بدأت المحنة... جيء بالقضاة والعدول والعلماء فامتحنوا في كل مصر...

وتلاحقت كتب المأمون: اختار أولاً سبعة من كبار المحدثين في بغداد منهم ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى. قدر أنهم قد يكونون رأس المقاومة فامتحنهم بنفسه. ثم عاد فأرسل كتاباً ثالثاً للتوسع في فرض الامتحان على جماهير المحدثين والقضاة والفقهاء بعد أن توسعت المقاومة أضعافاً. ثم بعث كتاباً رابعاً يفضح أحوال بعض المعارضين وطلب أن يرسل من يأتي منهم فيلحق به إلى طرسوس على جبهة الروم. وحمل إليه اثنان... كان أحدهما ابن حنبل. لكن الموت أدرك المأمون قبل أن يصلا، وأدرك الموت أحد الاثنين وهو عائد إلى بغداد. فتركزت المعارضة كلها في أحمد بن حنبل!...

لم يضطهد المأمون ابن حنبل أبداً. قصة المحنة كلها بعد ذلك هي قصة اضطهاده وأمثاله من جانب المعتصم وابنه الواثق تحت تأثير القاضي أحمد ابن أبي دؤاد الذي بقي فيصل القضاء والحكم ست عشرة سنة كانت هي نفسها سنوات المحنة... المعتصم كان شبه أمي. ولكنه اتبع نصيحة أخيه على

العمياء وأمر حتى بتعليم الصبيان قضية خلق القرآن ! وحين رفض ابن حنبل القول بذلك سجن . سجن ثمانية وعشرين شهراً . وعقد له سنة ٢٢٠ مجلس للمناظرة مع ابن أبي دؤاد دام ثلاثة أيام يحاصره القاضي بالمنطق ويعتصم ابن حنبل منه بالنص والتسليم به . وأمر المعتصم بضربه بالسياط حتى تعددت فيه الجراح وأعيد إلى السجن وهو صامد على قوله : القرآن قرآن ! ...

كان اضطهاد ابن حنبل نموذجاً مما جرى لغيره . وإذا لم يقتل لزهده وضجيج الناس من أجله فقد قتل الكثيرون في العراق والشام وخراسان أو سجنوا . في مصر أباد واليها فقهاءها والعلماء إلى أن أجابوا الخلق الخلق ... أما ابن حنبل فأعيد إلى بيته لا يبرحه . واستمر ذلك أيام المعتصم والواثق وبعض أيام المتوكل ... إلى أن رجع هذا الخليفة الأخير عن الاعتزال وانكشفت المحنة ... لكن بعد أن تركت ندوباً لا تمحى في الفكر الديني ...

الذين حضروا جنازة ابن حنبل بعد ذلك سنة ٢٤١ والذين يقدرون بحوالي ثمانمائة ألف عدا ستين ألفاً من النساء ... كانوا يمثلون ، في الواقع ، أصداء تلك القضية الكبرى ويعبرون عن تضامنهم ضد السياط التي مزقت قبل عشرين سنة ظهره ! ..

دريفوس

هذا الاسم المنسي الآن في فرنسا كان فيما بين أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ملء السمع والبصر والأحاديث. كان قضيته من القضايا الكبرى التي مزقت المجتمع الفرنسي إلى جبهتين. وجبهتين متقاتلتين حتى الحقد الأسود.

هما في الأصل قضية ضابط اشترته مخابرات بلد عدو واشترت منه بعض أ سرار الجيش. والقضية في حد ذاتها هي من نوع ما نسمع كل يوم في أنحاء شتى من الأرض... ولكن قضية دريفوس كانت لها خصوصيتها المميزة وقد تراكبت عليها عقد شتى جعلتها القضية المتفجرة في فرنسا مدة تزيد على اثنتي عشرة سنة...

فدريفوس يهودي. واليهود في أوروبا الغربية في ذلك الحين، كانوا موضع حقد الناس لأنهم قتلة السيد المسيح ولأنهم يحتكرون بعض المهن الثمينة ولأنهم في الجملة أغنياء. يمتصون دماء الناس. ثم أن دريفوس جمهوري وكانت فرنسا في أواخر القرن الماضي تستميت لتثبيت أسس الجمهورية فيها ضد جماعات ملكية قوية ما تزال تطمع في إعادة آل بوربون إلى الحكم. ودريفوس باع الأسرار لألمانيا... وهنا كانت عقدة العقد. كل وطنية الفرنسيين صارت حقداً على الرجل فإن فرنسا لم تنس أنها قبل ربع قرن هزمت في حرب السبعين أمام ألمانيا واستذلت حتى العظم بدخول الألمان باريس وتتويج ملك بروسيا إمبراطوراً على ألمانيا في قصر فرساي نفسه!!

وفي فترة ربع القرن هذه كان بين فرنسا وألمانيا سباق تسلح رهيب وكانت الأسرار المعطاة من دريفوس للملحق العسكري الألماني في باريس تتعلق بهذا التسلح وبابتكار مدفع ٧٥ملم .

بدأت القضية بإعادة تركيب أوراق ممزقة حصلت عليها المخابرات الفرنسية من سلة مهملات السفارة الألمانية واكتشفت فيها تقارير بخط يشبه خط الكابتن دريفوس ، وفي منتهى السرية أوقف الرجل وأحيل بأمر من رئيس الجمهورية إلى المحكمة العسكرية بتهمة الخيانة العظمى ! وحوكم دريفوس وحكم عليه في جلسة سرية بالسجن المؤبد والنفي إلى جزيرة الشيطان في غويانا من أمريكا الجنوبية ! وصفقت فرنسا كلها للحكم في حين كان المحكوم يجرد في حفل عسكري رسمي من رتبته العسكرية ويكسر سيفه !

كان ذلك في كانون الأول / ديسمبر ١٨٩٤ لكن مضاعفات الحكم كانت عديدة : فقد تفجرت أثره الاتهامات لليهود بالخيانة وقامت الصحف الكاثوليكية بالجملة على الخونة واستطال الملكيون على الجمهوريين يتهمونهم بالفساد وزادت التحديات بين ألمانيا وفرنسا .. لكن من خلال هذا التوتر الذي رافق الحكم تسربت بعض الأخبار حول عدم شرعيته . كان الجمهوريون وراءها من جهة ، وكان اليهود أيضاً ...

عرفت أولاً سنة ١٨٩٦ استمرار وصول الأسرار للألمان وحوكم على ذلك ضابط اسمه استرهازي خطه يشبه خط دريفوس ولكنه بريء وأثار ذلك الشكوك حول صحة اتهام دريفوس نفسه فأخذ المبادرة ضابط يدعى المقدم هنري فزييف وقدم وثيقة تدين دريفوس بالاسم وحين طالب الجمهوريون بإعادة محاكمة دريفوس رفض أركان الجيش . إن في ذلك نيلاً من شرف المحكمة العسكرية ورفض وزير الدفاع ومجلس الوزراء والنواب لأن الوثائق السرية

التي بين أيديهم تقنع بسلامة إجراءات المحكمة... لكن القضية تفاعلت شعبياً، أخذت البعد السياسي الكامل وقسمت الرأي العام الفرنسي قسمين حتى نشرت إحدى الصحف كاريكاتوراً فيه صورتان الأولى للأسرة مجتمعة حول مائدة الطعام ويقول رب العائلة: لكي نأكل بهناء فأنا لن نتحدث عن دريقـــوس... وفي الصورة الأخــرى صار الفرنسيـــون دريقـــوسيين ولا دريقوسيين...

ونزل الساحة الكاتب الفرنسي أميل زولا بكتاب مفتوح شهير عنوانه: أني اتهم! وجهه إلى رئيس الجمهورية وهاجم فيه بحدة المحكمة العسكرية مؤكداً تزوير الوثائق وجره ذلك إلى المحاكمة بتهمة القذف في حق كبار الضباط وإلى الحكم عليه وإلى الهرب من فرنسا... مما أوصل الصدام بين الفريقين إلى الأوج...

واتفق أن انكشف بالصدفة أمر تزييف المقدم هنري للوثيقة فاعترف وانتحر... وثار الرأي العام الفرنسي كله للفضيحة... وأجبرت المحكمـة العسكرية على إعادة المحاكمة... لكن قرار المحكمة الجديدة التي عقدت في بلدة ريم لم يختلف في أمر الخيانة العظمى وحكم بعشر سنوات! ولكن السجين تمتع ببعض الظروف المخففة وأطلق سراحه أواخر سنة ١٨٩٩! بعفو خاص من رئيس الجمهورية...

بعد ثلاث سنوات ونيف قدمت براهين جديدة على براءة دريقوس ظلت ثلاث سنوات أخرى قيد الدراسة في محكمة النقض والإبرام... حتى صدر قرارها بالبراءة وبإعادة الرجل إلى مركزه في الجيش وفي هيئة الأركان وبترفيعه... لأن وثيقة الإدانة كانت بخط الضابط الذي حكم قديماً ببراءته: استرهازي! ومنح دريقوس وسام جوقة الشرف هل انتهت القصة؟ أبداً...

في سنة ١٩٣٠ نشرت مذكرات الملحق العسكري الألماني بعد موته

بسنين وفيها يذكر أنه استرهازي هو الذي كان يعطيه المعلومات ولكنها كانت عملية تضليل لأن تسلسل الأحداث يكذب ذلك كما أن هذا الضابط كان من سلك المشاة ولا علاقة له بالمدفعية وخاصة بالمبتكرات الجديدة فيها ... ومع أن الضجة والتوتر العام ما لبث أن هدأ ... ونسي الناس حتى دريفوس نفسه إلا أن الباحثين ظلوا يحاولون كشف السر ...

ومنذ تسع سنوات فقط نشرت مذكرات شقيق دريفوس، وكان أودع هذه المذكرات في المكتبة الوطنية لتنشر بعد خمسين سنة من موته ... ومن هذه المذكرات ومن الباحثين تبين أن دريفوس ما كان سوى واجهة لعمليات تجسس وتجسس مضاد، كان يشترك فيها عدد من الجنرالات منهم الجنرال سوسييه والجنرال كاليفيه وزير الدفاع والقومندان ويل، كما اشتركت فيها إحدى العرافات ... وأنها كانت قضية ظاهرية ملأى بالتزييف والكذب وبشخصيات الظل والظلام. أما وقائعها الحقيقية فلم يكشف عنها أحد! ... لأنها ذهبت مع أصحابها الصامتين! ...

ظلت لغزاً ....

مجرمو نورمبرغ

يوم دخلت ألمانيا الحرب العالمية الأولى ، خطب أمبراطورها غليوم الثاني في الألمان خطاباً برر فيها دخول الحرب وختمه بكلمة : ويل للمغلوب ! ما تزال هذه الكلمة هي حكمة العلاقات الدولية . وقد أصابت بلغتها ألمانيا نفسها مرتين . في أعقاب الحرب العالمية الأولى وأعقاب الحرب العالمية الثانية . خاضت الحرب الأولى فاقتطعت منها عدة مناطق وحدد جيشها وأما في الثانية فقسمت نصفين واحتلت أراضيها إلى ما قبل سنوات وحرم عليها إقامة جيش عسكري وسيق زعماؤها للمحاكمة ...

لأول مرة في التاريخ يساق زعماء دولة مهزومة إلى المحاكمة . لكن الحلفاء المنتصرين أردوا عملية التشهير القانونية من وراء المحاكمة ، وأرادوا التغطية على جرائمهم التي لا تقل فظاعة ولا قسوة ولا إساءة للإنسانية عن جرائم الغازين . كانوا بمحكمة نورمبرغ يريدون إلقاء كل أقذارهم على رأس النازية المهزومة وأن يجعلوها تتحمل كل الخطايا ... ويل حقاً للمغلوب ! ...

ونورمبرغ مدينة ألمانية تجر وراءها تاريخاً طويلاً من الثقافة والتجارة والصناعة ومن الفنون أيضاً . في أبنيتها كالمجلس البلدي وعلى الواجهات لمسات أبنائها من الفنانين : دور وكرافت وفيها اخترعت أول ساعة جيب . وكانت كنائسها الأثرية كنائس سان سبالدوسان لورنس أولى الكنائس في تقبل البروتستانية ... كما كانت مدينة الاجتماعات السنوية للحزب النازي . لهذا

اختارها الحلفاء قبراً لهذا الحزب في محاكمة دولية تنهي وجوده سموها المجلس العسكري الدولي لمجرمي الحرب .

منذ اجتمع زعماء الحلفاء روزفلت ، ستالين ، تشرشل ، في طهران سنة ١٩٤٣ بدا واضحاً أن رياح الحرب اتجهت في صالح الحلفاء . وقد وضعوا في طهران خطة الهجوم على القلعة الأوروبية وتدميرها وكان من قراراتهم أن يعاقب زعماء الحزب النازي وبقرار مشترك من الحلفاء بوصفهم مجرمي حرب . ولكي يعطوا هذا القرار صفته الأخلاقية قالوا : إن المسؤولين النازيين يجب أن يحاكموا محاكمة عادلة ! إن نصرنا يجب أن يكون عسكرياً وأخلاقياً . ولا يمكنهم معاقبة المجرمين النازيين بأن نتصرف مثلهم ...

على أنهم كانوا في الواقع يتصرفون مثلهم وأكثر منهم . جنون الحرب كان قد جرف الجميع . ألمانيا خسرت في الحرب أكثر من ستة ملايين قتيل نصفهم في الحرب ونصفهم مدنيون في الغارات الجوية ليلة ١٤ شباط / فبراير / خسرت مدينة درسدن وحدها مائة ألف قتيل عدا الجرحى وعدا من بقي بلا مأوى . في القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما محت النار الذرية أربعة أميال مربعة من المباني وقتلت ٨٠ ألفاً وشوهت ١٢٠ ألفاً وتركت ٢٠٠ ألف عرضة للإشعاع القاتل سنوات طويلة وبعد ثلاثة أيام فعلت القنبلة الثانية فعل الأولى في ناغازاكي ...

ويلات الحرب كانت متبادلة لا قصر فيها النازيون واليابانيون ولا قصر الحلفاء . الحصاد الرهيب ، لو تذكرنا الحصاد الرهيب ، لهالتنا أرقامه تبعث على الدوار والرعب لقد شملت الحرب الثانية ٢٢ مليون كم من الأرض في حين ، لم تشمل الحرب الأولى سوى ٤ ملايين كم وأخذت بمنجلها الحديد ٣٢ مليون إنسان عدا مثلهم من المدنيين ولم تأخذ الأولى سوى عشر ملايين مع ١٥ مليون مدني . واستنفدت ٩٣٥ مليار دولار مقابل ٢٠٨ مليارات في الحرب

الأولى . ودمرت ١٧٠٠ مدينة كبيرة في روسيا وحدها كما دمرت ١٩٠ مدينة في ألمانيا عدا عشرات ألوف القرى . كان القتال قتال إبادة على الجبهتين . وكان على الخاسر أن يحتمل وحده سيل الذنوب !

وكلف الحلفاء أولاً بالتحقيق في جرائم النازية القاضي جاكسون ، قاضي المحكمة العليا في واشنطن الذي حدد هذه الجرائم في أربعة أنواع :

— جرائم ضد السلام قوامها التخطيط للحرب والبدء بها وقيادة العدوان بخرق الاتفاقات والعهود العالمية .
— جرائم ضد الإنسانية قوامها الإبادة والتشريد وقتل الإنسان ...
— جرائم الحرب وتتمثل في خرق قوانين الحرب .
— جرائم الاشتراك في مخطط أو مؤامرة لارتكاب الأعمال الإجرامية المذكورة في البنود السابقة .

النازيون الألمان لم يكونوا في هذا كله أقل قسوة على أنفسهم منهم على الآخرين . مصير جميع الذين تآمروا على هتلر كان رهيباً رهيباً في إحدى محاولات اغتياله القاتلة ذهب ٤٩٨ رجلاً مرة واحدة وعلق بعض الضحايا بكلابات الجزارين . ولم يكن أعداؤهم الحلفاء أقل جرائم منهم ولكن الزعماء الألمان خسروا الحرب وكان هذا ذنبهم الأكبر !

تألفت محكمة نورمبرغ بموجب اتفاقية في لندن (آب / أغسطس / ١٩٤٥) وقعها باسم المجلس العسكري الدولي ممثلو الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وبريطانيا وحكومة فرنسا المؤقتة ثم انضم إليها أمم أخرى . وأعطى المجلس فيها سلطة الحكم على كل من يجده مذنباً بإحدى الجرائم السالفة من الأفراد أو من الجماعات والمنظمات ومحاكمة أعضائها . ولإنقاذ مظاهر العدالة أعطى المتهمون حق الدفاع وعين لهم محامون يتلقون نسخاً من ملف

الاتهام ويطلبون ما يشاؤون من التفاصيل ويستخدمون الوسائل القانونية لدفع الاتهام .

أحيل إلى المحاكمة تسع شخصيات نازية منهم : غورنغ مارشال الرايخ ، قائد الجو ، رئيس مجلس الدفاع الأعلى . وهس الذي كان لا يزال مسجوناً في بريطانيا حتى مات قبل سبع سنوات وفرانك روزنبرغ وسيس إنكارت وكالتن برونر ، كما أحيل أربعة عسكريين (المارشالات فون كيتل ، جودل ، الأميرال دونتز ، ورايدر) وثلاثة دبلوماسيين (فون باين ، فون روبنتروب ، فون نورات وخمسة مسؤولين كبار منهم شاخت وسبير) مع ست مجموعات أو مؤسسات منها الحزب النازي والغستابو ...

استمرت المحاكمات أكثر من عشرة أشهر عقدت خلالها ٢١٦ جلسة وانتهت بحكم ١٢ من المتهمين بالإعدام شنقاً كان واحداً منهم هارباً هو مارتن بورمان) . وحكم ثلاثة بالسجن المؤبد (منهم رودولف هس) وأربعة بالسجن بين عشرين سنة وعشر سنوات ! وحكم ببراءة ثلاثة ...

الوحيدون من النازيين الذين نجوا من المحاكمة هم الذين انتحروا قبلها . هتلر الذي قضى منتحراً في دار المستشارية رافضاً أن يهرب أو أن يقع في يد أعدائه بعد أن أملى وصيته السياسية وأحرق أتباعه جثته . بورمان الذي هرب وفقد أثره بعد ذلك إلى الأبد . وغورنغ الذي امتص السم ... غوبلر وزير الدعاية الذي سمم عائلته كلها ثم أطلق النار على نفسه وأحرق مكانه كله . هملر وزير الداخلية لحق بالقافلة نفسها . المارشال روميل الذي أوقف وأجبر على أن ينتحر محاكمة نورمبرغ كانت قضية كبرى كما كانت سابقة كبرى في القانون الدولي واستتبعت عدداً من السابقات .

ترى لو انتصرت النازية ... لو انتصرت ...

أما كان المحكومون والمنتحرون يجلسون في كراسي القضاة وكان القضاة يجلسون في كراسي المتهمين ؟ ألم يقل الأمبراطور غليوم : ويل للمغلوب !

لنكولن

الحدث الذي سنتكلم عنه مضى عليه الآن مائة وثلاثون سنة كان أكبر جريمة هزت الولايات المتحدة قبل مقتل الرئيس كنيدي، وصارت قضيتها الكبرى فترة طويلة ثم طواها النسيان التدريجي ومع ذلك فثمة من لديهم هواية نبش الأوراق القديمة وبعثرة من في القبور ... وهم أحياناً على حق فالتراب، هذا الثري الذي تنبشه فيثير الغبار، يظل يحوي الكثير من الأسرار ...

القصة تتعلق بأبراهام لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة والذي تصنع له أضخم التماثيل الرخامية والحجرية فيها، هذا الرجل جاء رئيساً في اللحظة الانقلابية التي كان فيها الجماعات التي استعمرت أمريكا تنتقل من النظام الزراعي إلى النظام الصناعي. جاء في لحظة اصطدام النظامين وقيام الحرب بينهما وكانت الحرب فعلية دامت أربع سنوات مريرة. يسمونها حرب الانفصال ويذكرون أن سببها مشكلة الرقيق فالولايات الشمالية تريد إلغاءه والولايات الجنوبية ترفض ذلك... والمسألة ليست أخلاقية ولا بهذا الشكل المثالي من احترام الإنسان ولكنها حرب اقتصادية بين أصحاب الصناعة الرأسمالية النامية وبين أصحاب المزارع الكبيرة... وثورة اجتماعية بين طبقتين طبقة أرستقراطية من المزارعين الكبار وطبقة نامية من الرأسماليين الكبار. وتركيب الولايات المتحدة الجغرافي هو الذي جعلها حرباً بين الشمال والجنوب فالزراعة والمزارع الكبرى والعظمى كانت في الجنوب في حين كان التجمع السكاني والنمو الصناعي والآلات في الشمال ... واختلفت المصالح بين الطرفين

طويلاً قبل ذلك حتى وصلت إلى الحرب ...

وقامت الحرب سنة ١٨٦٠ واختلطت الوحول والأشلاء والعربات المحطمة بالمدافع ولهاث الجنود بأزير الرصاص وتمزق الناس بعواصف وأحقاداً بين شماليين وجنوبيين وكانت هذه هي القضية الأمريكية الكبرى ...

قبيل تلك السنة بقليل كان قد تشكل الحزب الجمهوري يمثل الشماليين خاصة ولما كانوا هم الكثرة اليدوية فاز مرشحهم سنة ١٨٦٠ بالرئاسة : أبراهام لنكولن ، وهو ابن أحد الحطابين . اشتغل عاملاً في المزارع ثم تاجراً ثم مساحاً للأراضي ، ودرس خلال ذلك الحقوق فصار محامياً ، وكانت المحاماة طريق السياسة في تلك الفترات فدخل المعترك السياسي وصار نائباً ثم ما لبث أن تزعم الحزب الجمهوري وصار رئيساً للولايات المتحدة . كان لنكولن قبل سنوات يقول : « إن بيتا منقسماً على نفسه لا يستطيع البقاء ولن يكتب للحكم استقرار أو بقاء ما دام نصفه أرقاء والنصف أحرار » .

وحين انتخب بادرت ولايات الجنوب إلى الانفصال وإلى اختيار رئيس لها . وكونت جيشاً وجامعة ودول وقيادة ودخلت الحرب كانت ولايات الشمال ٢٣ ولاية يسكنها ٢٢ مليوناً تقف في وجه ١١ ولاية جنوبية يسكنها تسعة ملايين ثلثهم من الزنوج . وصبغت الآلام والكوارث التي فجرتها المعارك بصباغ أخلاقي إنساني . هو شعار إلغاء الرقيق . واشتهرت في تلك الفترة الرواية التي نشرتها هاريت بيتشر ستو بعنوان (كوخ العم توم) وبيعت منها ٣٠٠ ألف نسخة في السنة الأولى واضطرت ثماني مطابع أن تعمل ليل نهار على تلبية الطلبات عليها ... كانت الرواية تغذي الحرب بكل عناصر الإثارة وتغطي على المصالح . ويقال أن لنكولن وكان طويلاً بين الرجال التقى صاحبة الرواية وكانت قصيرة ضئيلة الجسم فبادرها مشيراً إليها وإلى الحرب : الدائرة ــ أأنت التي فعلت كل هذا ؟

وامتد القتال أربع سنوات . مائة معركة وقعت . ٤ ملايين جندي كانوا وقودها ٦٠٠ ألف كانوا ضحاياها عدا الجرحى والمشوهين ١٠ مليارات دولار كانت خسائرها ... ولم يكن أحد ينتظر لها هذا المدى من الاتساع والتخريب وقد انتهت في مطالع نيسان /أبريل/ ١٨٦٥ باستسلام الجنرال لي قائد الجنوب قائد القضية الخاسرة !

ولكن هل انتهت القضية حقاً ؟

بعد يومين ، وبالضبط في ليلة ١٤ نيسان /ابريل/ كانت مدينة واشنطن بحراً من الفرح وبحراً من الأنوار الصخب يملأ الشوارع والأعلام بكل زاوية والناس حانات ودموع وضحك هستيري والفرح يذهب بالجموع ويجيء... وكان الرئيس لنكولن يحضر مع بعض الضيوف تمثيلية في مسرح فورد حين أطلقت عليه في مقصورته رصاصة ذهبت به وفرَّ صاحب الرصاصة .

نقل لنكولن إلى بيت مقابل المسرح ولكنه مالبث إلى الصباح... وتحولت الأفراح فجأة إلى حزن مرير في الشمال المنتصر . لقد انشرخ رمز النصر . ذهب يوم النصر !

بعد أيام وبعد تجنيد ١٠ آلاف شرطي وتخصيص ١٠٠ ألف دولار جائزة لمن يرشد إلى القاتل وتهديد من يساعده بالموت عثر على القاتل وقيل أنه ممثل متهور أحمق اسمه جون ويلكس بوث وأنه مات محترقاً حيث اختبأ في بعض المزارع وسيق شركاؤه أمام المحكمة العسكرية وهم ثمانية وحكم ثلاثة منهم بالإعدام وأعدموا في ٧ تموز /يوليو/ وهم : امرأة كان بيتها مكان اجتماع المتآمرين ورجلان . وأما الباقي فحكموا بالسجن ... وأغلق ملف القضية ...

لكن الذين فتحوه بعد ذلك وجدوا فيه ألف ريبة وريبة ...

ــ القاتل ليس من الجنوب إنه شمالي وإن كان يتعاطف مع الجنوب ولا يرتبط ارتباطاً مالياً أو عاطفياً مع قضية العبيد ! فكيف قتل ؟

ـــ عرف فيما بعد أنه ينتسب إلى جمعية سرية مجهولة المهمة تديرها شبكات في مختلف المدن الكبرى في الولايات المتحدة . فمن هي هذه الجمعية ؟
ـــ ثبت أن لنكولن كان يحتفظ في مكتبته بثمانين رسالة تهديد بالقتل فكيف كان في المسرح دون حراسة ؟ حتى حارسه الخاص كان تلك الليلة في بيته ؟
ـــ أظهرت الوثائق أن القاتل كان على علاقة مع جهاز المخابرات في الجنوب المهزوم . فما دور هذا الجهاز ؟
ـــ كانت الخطة أولاً هي اختطاف الرئيس لمبادلته والمساومة عليه ولم تنجح ثلاث محاولات لاختطافه . فمتى تبدلت الخطة ، ولماذا ؟
ـــ كان ثمة من كلف باغتيال نائب الرئيس ولم يفعل . ومع ذلك فقد حكم بالإعدام .
ـــ حاول رجل آخر اسمه لويس بان قتل وزير الخارجية في بيته وفشل لأن الوزير كان جريحاً وجاءت الطعنات في لفائق الجراح . وهرب المعتدي ! ...

ظل متهم أخير هارباً وتأخرت محاكمته ثم تأخرت حتى أتى عليها الزمن وتأخرت حتى أتت به من مصر . وحوكم مرتين وسقطت التهمة عنه بمرور الزمن فمن الذي آخر المحاكمة ؟

بجانب ذلك استطاع القاتل وشركاؤه الهرب بسهولة وعبور حواجز التفتيش من أماكن لم تشدد فيها المراقبة وقد تقدم بعضهم إلى الأطباء فعالجوهم من جراح الرصاص دون أن يبلغوا عنهم واختفى القاتل في مزرعة لم يقر صاحبها بوجوده عنده إلى أن علق للشنق على شجرة ... فما هذه الحماسة ؟

وأخيراً فقد دفن القاتل دون عرضه على أهله وحين سلم لأهله بعد أربع سنوات ثبت من الأسنان أنها مختلفة عن أسنانه ! ...

لقد انتهت قضية العبيد والناس بلى ! ولكن قضية لنكولن ما تزال منذ ١٣٠ سنة مفتوحة !...

المارشال ناي

نابليون بونابرت، هذا الرجل الذي يلتمع في التاريخ الفرنسي الحديث بأضواء ذهبية وأضواء سوداء، كان في الواقع يغطي كالمظلة على مجموعة من العسكريين الكبار هم الذين صنعوا بونابرت وصاغوا شهرته وأمجاده التي ترن كالأجراس... المارشال ناي كان من هؤلاء العسكريين. كان من جملة من صنعوا تمثال نابليون الذهبي وحولوا لاسمه كل بطولاتهم... ومع ذلك فقد كان هذا المارشال نموذجاً للوصولي الكبير... وصوليته هي التي أوصلته إلى أن يصبح قضية ومحاكمة ونهاية... على المقصلة!

ولد ناي سنة ولد نابليون أي سنة ١٧٦٩ وتطوع جندياً سنة ١٧٨٧ قبل الثورة الفرنسية بسنتين. وبعد سبع سنوات كان قد قفز السلم العسكري كله، على أكتاف الثورة، وأضحى برتبة جنرال، ما من شك في أنه كان موهبة عسكرية لكن الذي شال به إلى المراتب العليا هو بلاؤه الواضح في معارك الثورة الداخلية وعلى الحدود...

وتلقفه نابليون في زحفه السياسي، نحو المجد والسلطة وفي زحفه الحربي نحو أوروبا. وكان ناي إحدى الركائز الذي اعتمد عليها في انتصاراته في إيلشينون، وأولم وفي التيرول. ثم كان أحد أركان النصر المؤزر في معركة أوسترليتز التي أوصلت نابليون إلى الأوج! وكان هو الذي ضرب الجيش الروسي الضربة الساحقة في معركة إيينا وصار يلقب بأشجع الشجعان ثم

حارب مع نابليون في اسبانيا وإن لم يسجل فيها اللمعان السابق ... لقد كانت الحملة الاسبانية كلها فشلاً متصلاً ...

وحين أوحلت جيوش نابليون في روسيا سنة ١٨١٢ غرقت في الوحل والثلج وعواصف البرد القاتل كان المارشال ناي معه وقد دخل موسكو فعلاً في تشرين الأول / أكتوبر / لمدة أربعة أيام ونال من نابليون لقب أمير موسكوفا ... ولكن حريق المدينة أجبره على التراجع ... وكانت جيوش نابليون كلها مهزومة فرافق المارشال ناي الهزائم ورافقته على طريق العودة قضت على أيام الغار والأكاليل وطبول النصر وحلت الأيام السوداء هزيمة بعد الأخرى في دريسدن ثم ليبزنغ ثم ... في داخل الأراضي الفرنسية نفسها ثم في باريس ... كانت كل أوروبا قد تألبت على نابليون وجيوشه وطبوله الضاربة في الآذان .

في آذار / مارس / ١٨١٤ كانت جيوش الحلفاء تدخل باريس منتصرة على الامبراطور وعلى الثورة التي قذفت به كالكابوس الدموي على أوروبا . وأقام قيصر روسيا وملك بروسيا وامبراطور النمسا معسكراتهم في حدائق باريس .. وترك نابليون العاصمة إلى فونتبنلو طالباً من مارشاله ناي مفاوضة المنتصرين على صلح مشرف . ولكن هذا لم يكن ممكناً فإن ملك فرنسا الشرعي لويس الثامن عشر كان يرافق جيوش الحلفاء وعلمه الأبيض أضحى يرفرف بكل مكان بدل العلم المثلث الألوان ودخل المارشال ناي على امبراطوره يقول :

ـــ سيدي : لم تعد امبراطوراً بعد ، وثيقة التنازل عن عرش فرنسا هي الشيء الوحيد الذي تستطيع توقيعه . الجيش الذي جمعناه من الفتيان وطلاب المدارس الثانوية لا يطيع ولو أطاع لما كان باستطاعته عمل شيء ... كل القواد انضموا إلى الحلفاء !!

يومذاك أرسل نابليون منفياً إلى جزيرة ألبا قرب الشاطىء الإيطالي

وفيما كان يبحر إليها كان ناي يتوجه إلى مقر الحكومة المؤقتة ويضع نفسه تحت تصرفها وتصرف الملك العائد ! قال للكونت دارتوا شقيق الملك :

ــ لقد تفانينا في تنفيذ أوامر حكومية صدرت إلينا في إطار خدمة فرنسا وسترون أنتم وجلالة الملك مدى إخلاصنا وتفانينا في خدمة ملكنا الشرعي المفدى . .

وعين المارشال ناي قائداً أعلى لأهم الفرق في الجيش . . .

ومضت أشهر هادئة . . . .

في الذكرى الأولى لسقوط باريس (آذار / مارس / ١٨١٥) علم ناي أن الامبراطور نابليون نزل من جديد في مدينة كان . . . عائداً إلى فرنسا . بلغ من قصر نظر لويس الثامن عشر أن أراد إلغاء عشرين سنة حافلة من التاريخ الفرنسي فأبغضه الناس واستغل نابليون ذلك ليعود . وكان ضباطه السابقون قد أخذوا يتبادلون زهرة البنفسج وهم يهمسون سيعود في الربيع ! وعاد في الربيع !

فأين يقف المارشال ناي ؟ كتب إلى الكونت دارتوا شقيق الملك حين علم أنه دخل مدينة ليون على رأس جيش كبير يرجوه أن يستدعيه لخدمته وليبرهن عن إخلاصه وأضاف ليس عندي معلومات عن نابليون واعتقد أنه يعيش الفصل الأخير من نهايته الفاجعة ! بعد ساعات من ذلك علم ناي أن الفرق الملكية تهزم أمام نابليون أو تلتحق به فاتصل بوزير الحرب معلناً : سأغمد سيفي في أول جندي يخالف أوامري ويصيح ليحي الامبراطور وأكد للملك وهو يقبل يده أنه سيأتيه في قفص من حديد !

في الطريق إلى ملاقاته جاء من أقنعه بأن نابليون عائد لا محالة وسرعان ما انقلب الرجل وكتب في الأمر اليومي لجنوده : عائلة البوربون الحاكمة انتهت إلى الأبد ووطننا الجميل سيعود إلى حكم الامبراطور المفدى نابليون . لقد انتصرت الحرية . . . يحيا الامبراطور والتوقيع مارشال الامبراطورية . أمير

موسكوفا ! وحين لقيه صاح بجنون يحيا الامبراطور وعانقه وهو يبكي ! ووضع نفسه تحت تصرفه ...

ونزل الامبراطور قصر التويلري وانصرف إلى إعداد جيش يقف فيه للحلفاء الذين عادوا فجمعوا قواتهم لطرده . وفي واترلو ، التي كان المارشال ناي أحد نجومها هزم نابليون ، وطارده الحلفاء إلى باريس مرة أخرى فاستسلم لسفينة بريطانية في ميناء ردشفور حملته إلى جزيرة القديسة هيلانة .

ووقف المارشال ناي في مجلس مندوبي الحلفاء يقول : يجب استدعاء أسرة البوربون الملوك ! ... لكن أحداً لم يصدقه ... فهرب . وكان في الطريق إلى سويسرا حين علم أنه أحيل للمحاكمة مع ١٨ قائداً آخرين بتهمة الخيانة العظمى ... وقد قبض عليه ورفض أولاً المجلس العرفي الذي يحاكمه لأن رتبته وألقابه تجعل محاكمته من حق مجلس النواب ولكن أمراً ملكياً صدر بقبول المجلس . وفي قصر اللوكسمبورغ احتشد الأمراء والسفراء والوزراء والنواب وكبار الضباط لشهود المحاكمة المثيرة ! ... الناس في الشارع كانت تتنازعهم المشاعر بشأنه بين الحقد والإشفاق ! قالوا راهن على الحصان الخاسر . قائمة الاتهام كانت طويلة وتتهمه بالرشوة وبالصلات المشبوهة ... وقال أحد الشهود :

ـــ وعد بأن يأتي نابليون في قفص فاتي به إلى العرش .

وقال ثان :

ـــ قبض ٧٠٠ ألف فرنك ...

وقال ثالث :

ـــ إن مزاجه المتسرع والانفعالي وعقليته التي تسعى إلى البريق هما اللذان أوقعتا به .

وقال رابع :

ـــ أعطاني أوامر بفتح الثغرات في الجيش ليتسلل منه جيش نابليون .

دفاع المارشال ناي الأساسي . كان أنه في كل الأحوال يريد تجنيب

البلاد حمّامات الدماء! وإن إخلاصه هو دوماً لفرنسا. ولم ينفع الدفاع. وصدر الحكم بالإعدام بـ ١٢٨ صوتاً من أصل ١٦١.

وطلب أن يصدر بنفسه الأمر بإطلاق الرصاص وقال قبل ذلك:

أحتج على إعدامي وأتوجه باحتجاجي إلى الله وإلى الأجيال القادمة ...

إلى الله نعم! ولكن الأجيال القادمة لم تسمع أبداً صراخه! لقد نسيته!

دانتون

يقولون أن الثورات كالقطط تأكل أولادها وأن الأحقاد نيران متى انطلقت فإن أحداً لا يدري من ذا الذي يكتوي بنارها؟ وطابخ السم للناس ذائق لهذا السم لا محالة! والسيول المغرقة متى انفجرت جرفت كل شيء إلى الوديان ... حتى الجبال! والواقع أن الثورات لا تكسر القوانين فقط ولكنها تنقل مراكز القوى من حالتها المستقرة العاقلة إلى دنيا الهوس والأحلام الكبار والأحقاد الكبار ... ويصبح الثائرون كالمغرفة الضخمة يغرفون حتى أنفسهم ...

ذلك على الأقل هو المثل الذي قدمتها العديد من الثورات الضخمة كالثورة البلشفية والثورة الأمريكية وثورة كرومويل الإنكليزية والثورة الفرنسية أيضاً ...

هذه الثورة الأخيرة التي بدأت سنة ١٧٨٩ تصاعدت خلال خمس سنوات وانتهت بما لم يحلم به أبداً قوادها الأولون. انتقلت مسرعة من حركة تطالب بالإصلاح والخبز إلى دين جديد يريد أن يفرض نفسه! بدأت تطالب بتمثيل الشعب وحقوقه، ثم ثارت على سجن الباستيل وأسست الحرس الأهلي ثم ألغت امتيازات الاشراف ورجال الدين. ثم أعلنت حقوق الإنسان (عامة لا حقوق الفرنسي)، ثم أعلنت تحت ضغط الأحداث الخارجية سقوط الملكية وإنشاء حكومة الكومون وذبح المشبوهين بالميل للملك! ثم أعلنت الجمهورية وأعدمت الملك والملكة ثم أقامت لجنة الأمن العام لقمع المعادين للثورة وأخذ

الإرهاب يجتاح البلاد ويجرف الناس كمنجل الحصاد بالمئات وأخيراً وصلت إلى إلغاء تقسيم الأشهر والأسابيع والمكاييل والموازين وأسماء الأشهر وتاريخ السنين وانتهت بالإرهاب الأكبر حين قررت إلغاء الدين المسيحي وإعلان عبادة العقل ونهب الكنائس .. ونصبت زعيم الثورة رووبسبير كاهناً أعلى لهذه العبادة في احتفال طقسي كبير ! ... في حين كانت المقصلة لا تتوقف خلال خمسين يوماً دامها هذا الدين وقطفت ٢٦٠٠ رأس بينها العالم الشهير لافوازيه ! ... إن الثورة ليست بحاجة إلى علماء . كذلك قال المدعي العام وهو يسوقه إلى المقصلة ! لكن حمام الدم ، هذا الكابوس الرهيب ، انتهى بقطع رأس صاحبه نفسه روبسبير !! ...

قبل ثلاثة أشهر من ذلك في مارس ١٧٩٤ كان دانتون واحداً من الثالوث الكبير الذي يقود الثورة ويوقد نيران الإرهاب ! ومع ذلك فقد أرسله روبسبير إلى المحكمة مع أربعة عشر ثورياً آخر بتهمة التراخي !! ...

كانت هذه هي القضية الكبرى بالنسبة للثورة : التراخي ! « زمرة الخمسة عشر مشبوهاً كما سمتهم الثورة هم القادة الخمسة عشر الذين تعبوا من رؤية الدماء المتدفقة والرؤوس المقطوعة وهمسوا أو حاولوا أن يقولوا : كفي ! كفي ! » هذا هو الكفر بعينه مجرد المعارضة هو الخيانة العظمى ! ..

في صدر قصر العدل في باريس قامت المحكمة يتوسطها القاضي هرمان ومن حوله المستشارون الأربعة وكان المدعي العام فوكييه السفاح في جانب وفي الجانب الآخر المحلفون السبعة والذين اختيروا من مصاصي الدماء وعلى الجدار في واجهة القاعة نسخة من الدستور ونسخة من حقوق الإنسان . وفي الوسط كان دانتون ورفاقه الذين أتى بهم من قصر اللوكسمبورغ بعد أن تحول مع القصور الأخرى إلى سجون لتتسع لآلاف المتهمين . أما الجمهور فكان ينتظر بلهفة أن يسمع التهمة من جهة وأن يسمع دانتون العجل الكبير المتهم من

جهة أخرى: ولدانتون سمعته كمحام وسمعته كخطيب وسمعته كثوري كبير ساهم في إنقاذ فرنسا يوم اجتياحها الكبير سنة ١٧٩٢ ... كانوا ينتظرون ليروا كيف تصطدم الثورة بالثورة وكيف تأكل القطة أولادها!

روبسبير في خطابه الأخير في الجمعية التأسيسية قال: أعداء الشعب الفرنسي فريقان: الأول يدفعنا صوب الضعف والثاني نحو التطرف. وقد تخلص من فريق التطرف، فريق هيبر وأمثاله، وجاء الآن دور فريق الضعف، زمرة المتراخين: دانتون وكاميل دي مولان والآخرين... كان يريد أن يجمع جميع السلطات في يده ويصبح كاهن الثورة الأعظم. دكتاتورها، رجلها الأول...

لهذا كان يجب أن يزول شبح دانتون من أمامه. وصنفه بين أعداء الشعب رغم قاعدته الشعبية العريضة! هذه هي التهمة والجريمة الكبرى! ولكي يشوه صورته حشره في محاكمة واحدة مع من يحاكمون بالرشوة والفساد والتلاعب بالأسعار.

تحدى دانتون المحكمة منذ البداية فهو يعرف الإجراءات فيما سئل عن اسمه حتى اندفع: اسمي جان جاك دانتون. عمري ٣٤ سنة. ولدت في أرسيس. محل إقامتي باريس. وبمحام ــ نائب في الجمعية الوطنية، أما بعد آلان فساسكن في العدم في حين سيكون اسمي مع العظماء في البانتون وسينحني الشعب أمام رأسي الذي ستقطعه المقصلة!...

في اليوم الثاني للمحاكمة وجد دانتون بجانبه مع المتهمين الجنرال وسترمان بطل معارك فانديه التي أعطت الثورة أكاليل الغار. كان ذنبه أنه صديق دانتون. وقال الجنرال:

ــ أطلب من المحكمة أن تسمح لي بنزع ملابسي ليرى الشعب الجروح السبعة التي أصبت بها دفاعاً عن الثورة فما هي تهمتي؟

وتحمس دانتون فقال للقضاة إذا كان الشعب الفرنسي ما يزال كما أعرفه

فسأكون أنا الذي يطالب بالعفو عنكم ! إن افتراءاتكم مردودة أين الشهود ؟ لقد حاربت كل الخونة وكنت جمهورياً في عصور الاستبداد وسأموت كذلك رغم كل شيء. وتوالت المحاكمة خمسة أيام ... الشهود الذين طلبهم دانتون وألح في طلبهم كانوا أعضاء في الجمعية الوطنية وتتطلب دعوتهم الأذن من لجنة الأمن العام. وجاء جواب الجمعية يفوض المحكمة باتخاذ ما تراه من إجراءات ولها في حالة المساس بكرامتها من قبل المتهمين اتخاذ أقسى العقوبات الفورية !!

وهدد دانتون وتوعد قال : هذا اغتيال للعدالة. اقتلونا دون هذه المحاكمة المهزلة أيها القتلة. وذهبت صيحاته في فضاء القاعة لأن المدعي العام أمر بإخراج المتهمين من قاعة المحكمة لأنهم أهانوها وتابعت المحكمة أعمالها ...

خلا المحلفون للمذاكرة في اليوم الأخير وعادوا. وكان القرار بإعدام دانتون صعباً ولكن إعدامه كان قد تقرر من قبل. لهذا ما أن بدأ الكاتب بقراءة القرار حتى قال دانتون.

ــ لا لزوم لذلك. الأفضل أن تقودونا مباشرة إلى المقصلة. لا أريد سماع حكمكم ولكني أبصق عليه ...

وصدر الحكم طبعاً بالإعدام وكما كان تنفيذه فورياً خلاله مهلة لا تزيد على أربع وعشرين ساعة فقد سيق المحكومون بعد الظهر إلى ساحة الثورة في عربتين الجماهير كانت تنظر كأنها ترى مسرحية تمثيلية لا حقيقة، الجلادون كانوا يمارسون عملهم كالآلات أو كالمنومين .. وصرخ واحد من العربات :

ــ أنا رسول الحرية، لا تتركوني أموت، النجدة.

ولكن أحداً لم يرد عليه ! ... ولا الصدى .. وقبل أن يسقط دانتون على المقصلة صاح :

ــ روبسبير ستلحقني عن قريب !

ولم يكذب دانتون، انتهت قضيته بالنسبة لروبسبير ولكن روبسبير نفسه لحق به بعد ثلاثة أشهر وعلى المقصلة نفسها ! ...

الحافظ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي

حاد مستقيم كالسيف . كذلك كانوا يصفون هذا الرجل الذي ولد في فلسطين ، وفي قرية صغيرة قرب نابلس اسمها جماعيل ، أيام الحكم الصليبي لذلك البلد . كان قد مضى على هذا الاحتلال الأجنبي خمسين سنة حين ولد وكان عمره عشر سنوات حين هرب منه خائفاً يترقب مع أهله وإلى دمشق .

وكان بعد العشرين حين قصد مصر يدرس النحو ثم عاد إليها في أول أيام صلاح الدين فيها ثم سافر وهو حول الثلاثين إلى بلاد العلم في المشرق بغـــداد ، همذان ، مرو ، أصبهان ، الموصل ... وحين عاد كان قد جمع فأوعى ... بلى! جمع فأوعى . رحلاته كانت في طلب الحديث النبوي ، وفي تحصيل الكتب ونسخها بخطه المتقن وما كان العالم في ذلك العصر يدعى عالماً إن لم يسع إلى حواضر الأرض يطلب العلم على أصحابه ويحصل على إجازاتهم له ...

كذلك فعل تقي الدين عبد الغني الجماعيلي ... سلك الطريق ذاتها حتى إذا عاد إلى دمشق أدهش الناس بحفظه الحديث ومعرفته بتواريخ الرجال والحفاظ فرجعوا إليه يستمعون ويستفيدون . كان حنبلياً ودمشق على المذهب الشافعي وقد لجأ أهله منذ وصلوا به فلسطين إلى سفح جبل قاسيون المطل على دمشق فبنوا هناك مركزاً حنبلياً من جامع ومدرسة وبضعة بيوت وللعلم وحده . ولما كان هذا الرجل وأسرته كلها من آل قدامة قد عرفوا بالعلم والتقي والصلاح فقد تكاثر حولهم طلاب العلم ومع الطلاب جاء أهلوهم وجاء الباعة

فإذا بالمركز يصبح سريعاً بلدة صغيرة للعلم تغلى بالقراء والشيوخ والمحدثين والنسّاخين والدّارسين . عرفت بالصالحية ...

وقد زاد إقبال الناس على العلوم الدينية بعد ذلك الدوي الذي أحدثه نصر صلاح الدين في حطين وتحرير القدس من الصليبيين ثم موته قبل أن يستكمل طردهم من بلاد الشام ! تقي الدين الجماعيلي عاش نشوة هذا النصر كما عاش الأسى الذي أحسه الناس لفقد صلاح الدين . واعتقد كما اعتقد الكثيرون أن المزيد من التمسك بالدين سيأتي بالنصر النهائي لا محالة ! ...

كانت هذه صلب عقيدته . لقد لقبوه بحافظ الوقت ، وبأمير المؤمنين في الحديث ولكنه لم يكن يأبه كثيراً لهذه المدائح الشخصية . كان همه في شيء آخر هو حمل الناس على الجادة . هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ! ... وكان هذا يعني الاصطدام بكثير من المنكر ومن هنا بدأت قضية تقي الدين ومن هنا كان تفاقهما ...

كان يقرأ الحديث النبوي في الجامع الأموي الكبير بعد صلاة الجمعة . ويبكي ويبكي الناس وكان لا يضيع شيئاً من زمانه يلقن الناس القرآن ويعظ ويقطع معظم يومه بالصلاة . وبتشجيع الحديث وبالنسخ ويقوم على القراءة والدعاء والتسبيح حتى منتصف الليل . فلم يكن أحد يستطيع النفوذ إلى سمعته في الدين ولكنه أذى الكثيريـن من المتنفذيـن اللاهين برفضه كل منكر ... يغيره بيده أو يطلق فيه لسانه لا تأخذه في الله لومة لائم . وكثيراً ما أهرق الخمر لبعض العابثين غير عابىء بسيوفهم وكثيراً ما كسر الطنابير والشبابات التي يطلقون دندناتها في زوايا البساتين ... وحدث مرة أن بعض أولاد صلاح الدين قد عملت لهم طنابير وحملت إليهم وهم في بعض البساتين يشربون فلقي الحافظ الطنابير تحمل إليهم فكسرها ودخل المدينة فلما خرج منها

لحقه قوم كثير بالعصي ... ولكنهم تهيبوه حين عرفوه ونزل فارس لحق بهم وترجل فقبل يده وقال : يا شيخ . الصبيان ما عرفوك !! ...

ودخل الحافظ مرة على الملك العادل الذي خلف أخاه صلاح الدين فرآه يتحدث في أمر حصار ماردين المسلمة وأخذها فقال تقي الدين : أيش هذا ؟ وأنت تريد بعد قتال المسلمين ؟ أما تشكر الله فيما أعطاك وجعلك إماماً ؟ وسكت الملك العادل فما أعاد ولا أبدى فلما قيل للحافظ وهو خارج كنا نخاف عليك من هذا الرجل ثم تقول له هذا القول فقال : أنا إذا رأيت شيئاً فلا أقدر أن أصبر ... وفي زمن الأفضل ابن صلاح الدين جعلوا الملاهي قريباً من باب الجامع الأموي فجاء الحافظ فكسر شيئاً كثيراً منها ثم صعد المنبر في الجامع يقرأ الحديث وجاءه رسول القاضي يطلب منه المشي إليه حتى يناظره — كما قال الرسول — في الدف والشبابة . فقال الحافظ ذلك عندي حرام وأنا لا أمشي إلى القاضي . إن كانت له حاجة فيجيء هو ... وعاد الرسول عليه يؤكد طلب القاضي ويقول : أنت أبطلت هذه الأشياء وهي بأمر السلطان فقال الحافظ : ضرب الله رقبته ورقبة السلطان ...

وارتعد الناس وتفرقوا يخافون أن تحدث فتنه ... ولم يحدث شيء يومذاك ولكن الرجل صار قضية البلد تعصب له البسطاء والمتدينون ونفذ صبر أصحاب الأمر من السلطان إلى آخر الشيوخ ولم تعجزهم الحيلة حتى أوقعوا به : كان يتكلم في صفات الله وفي القرآن بشيء أنكره عليه أهل التأويل من الفقهاء الأشعرية وسعوا به عليه ورفعوا أمره إلى السلطان . وبلغ التوتر أقصاه في المدينة يوم عقد للحافظ مجلس بدار السلطان بالقلعة حضره القضاة والفقهاء لمحاكمته وكرر أقواله التي أنكروها ودعوه إلى أن يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فأبى وناقشوه في أمور أخرى واختلفوا معه في إمكان رؤية الله وفي إثبات السمع

له والبصر كما يرد في بعض الآيات القرآنية فلما رفض قولهم قرروا خروجه عن الدين وإباحة دمه !!

وشفع فيه لدى السلطان جماعة من الأمراء والقواد . أدركوا مبلغ الخطر في قتله . فتوسطوا الأمر على أن يخرج عن دمشق إلى مصر . يريدون احتواء أطراف الفتنة التي قسمت الناس وتركتها على الحافة من أعصابها !

وأخرج الحافظ منفياً إلى مصر ! ...

كان يغريه أن الناس هناك كانوا يتجمعون حوله ويتمسحون به ويتبركون ...

ولكن قصة دمشق وأجواء دمشق ظلت تدمي صدره ... وقد مات في مصر خاملاً منسياً دون أن يعود إليها !

مات لم يهادن في الله ولم يهادن الحكام

ولم يهادن المفسدين ! وإن تآلبوا جميعاً عليه

ابن حـــزم

ما كان هذا الرجل سياسياً ليكتوي بالأحقاد تثور كفوهات الجحيم ضده ، ولا كان صوفياً تسوقه تأويلات ألفاظه إلى التعذيب والنار . ولا صاحب عقيدة مناهضة للناس ليتكالبوا عليه ولا قائلاً سفاحاً . إنه من العلماء واسمه الكامل أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري .

ومع ذلك فقد كان قضية كبرى شغلت الناس في الأندلس لعهده في أواسط القرن الخامس الهجري قبل حوالي ٩٥٠ سنة ...

ولد في قرطبة من الأندلس ، يوم كانت الأندلس أعراساً من الشعر والعلم وكانت قرطبة امتداد قصور وأصداء تسبيح لله وملحمة جهاد وقبل وغناء سيوف ... وكان أبوه وزير قرطبة كما تسلم هو نفسه هذا المنصب ... وقبل أن يتسلمه كان قد التهم الكتب وغامر في جميع العلوم . درس الطب والفلسفة كما درس الفقه والجدل وبحث في المنطق والإلهيات كما بحث في الأدب والنسب وعانى الشعر كما عانى السير والأخبار وتعمق في الملل والنحل تعمقه في رواية الحديث والتفسير ... قالوا عنه أنه أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة . وكتبوا عنه أنه لم يجتمع لأحد ما اجتمع له من الذكاء والحفظ وكرم النفس والتدين... وذكر ابنه ، وكان من العلماء كأبيه ، أنه جمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على ثمانية ألف ورقة ...

إن هذا يجعل الرجل واحداً من أربعة أو خمسة من كبار المؤلفين في

الإسلام كابن الجوزي والطبري والسيوطي والمرزبان بلغوا في التأليف المبلغ الذي لا يداني ...

أيكون الحب الفاشل هو الذي فعل كل هذا بالرجل ؟ يقولون ذلك عن ابن حزم كما يقولون أن فشله في السياسة هو الذي أخرجه إلى عالم اليأس فانصرف للعلم . كان من أنصار الأمويين ومالت بهؤلاء الأيام ونفى ابن حزم في سبيلهم مرتين من قرطبة . فآلى على نفسه ألا يضع يداً في السياسة بعد ذلك ... وانصرف للعلم والدين والفقه ... والشعر أيضاً ...

ونسي ابن حزم كل شيء من السياسة إلا اللد والخصومة . نقل كل ذلك معه إلى ساحة العلم ... وبدأت قضيته مع بدء انتشار سمعته ...

الذين قدروا ذكاءه وعلمه ومكانته رفعوا شأنه إلى السماء وقالوا كان زاهداً في الدنيا بعد الرياسة . متواضعاً . ذا فضائل جمة والذين أبغضوه هبطوا به أسفل سافلين فقالوا : سليط اللسان كثير الوقوع في العلماء لسانه وسيف الحجاج شقيقان صنوان ! لا يسلم منهما أحد !

استحسن المذهب الظاهري في الفقه والظاهرية يلتزمون بالتقليد المأثور ويأخذون بالمعنى اللفظي الظاهر للقرآن فأقبل يدرسه ، ووقف له علماء المالكية صفاً ومنعوه من التدريس في جامع قرطبة وفي غيره ... وتنقل يذرع مدن الأندلس داعياً لمذهبه وثارت بينه وبين الفقهاء المساجلات التي لم تخل من حدة وقول جارح فما ازداد الرجل إلا عناداً ولم يزدد مناهضوه إلا حقداً عليه ... الحقد ككرة الثلج ينمو مع الأيام وابن حزم لا يهادن أحداً ... ولا يجامل يستند إلى بحر من العلم والاطلاع ما ينفك يزداد ويهدر ...

ونجح أعداء ابن حزم في طرده من مكان إلى مكان يلحقه هنا اتهام بتحريف النصوص . وهناك اتهام بالتفسير الملتوي وفي مقام ثالث اتهام ببتر النصوص والتشويه المتعمد . وكانوا يخفون وراء هذه الاتهامات جراحهم من

سخره، ومن لدده في الخصومة ومن قسوته في الجدل ومن اعتداده الذي لا ينتهي بما أوتي من العلم ... ووراء هذا وذاك اختفت مزايا ابن حزم لم تعد صورته الهادئة الرزينة المنطقية بالظاهرة. وغشت عليها صورة أخرى لرجل عبوس عنيف شديد التضليل. وشاع تحذير الأمراء ومن فتنته وتحذير العامة من الدنو منه أو الأخذ عنه ... فأقصاه هؤلاء وأولئك على السواء.

ومع اشتداد غربته بين قومه اشتدت حدته وكبرت قضيته بين الناس. عاين من ألوان الظلم السياسي والاجتماعي والديني ما انضبت معه الرقة واللين في نفسه. وأوذي في كرامته بالاضطهاد حتى رأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتجهمون له ويقاطعون مذهبه الديني ... قالوا إنه جاهل بسياسة العلم ... لا بالعلم!

وترك ابن حزم الأندلس إلى المشرق وعاد يستقر في جزر الأندلس الشرقية، جزر الباليار قضى هناك عشر سنوات عرف فيها المر. تحالف العلماء ضده في ميورقة بزعامة الحافظ محمد بن سعيد الميورقي واستعانوا عليه بأبي الوليد الباجي الحافظ الشهير وأبي الوليد بن البازية الميورقي ومحمد بن سعيد الميورقي وتضافروا جميعاً على ابن حزم وعقدوا معه مجالس بعد مجالس للمناظرة ومع أن ابن رشيق حاكم المدينة كان في جانبه وهو الذي يبسط عليه ظله إلا أنه لم يستطع أن يمنعهم من إفحامه وإسكاته أكثر من مرة ومن التشهير به. وحين مات ابن رشيق الحاكم لم يكن من الصعب على علماء الجزيرة أن يستصدروا من الأمير الجديد قراراً بإخراجه منها.

وعاد إلى بر الأندلس ليجد أن المعتمد بن عباد قد صادر كتبه وأصدر أمره بإحراقها ... فنصبت لها المحرقة في ساحة المدينة ومزقت وحرقت علناً ... ضاعت معظم مؤلفاته هكذا في النار!

وقال ابن حزم:

فان تحرقوا القرطاس ولا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينـزل أن أنـزل ويدفـــن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم : كي يرى الناس من يدري !

ولحقه الحرمان بكل مكان ما يكاد يخرجه أميراً من بلده حتى يخرجه الآخر من البلد الثاني إلى أن انتهى الرجل إلى قرية له ببادية لبلة في غرب الأندلس ... لزمها مطروداً من الجميع . محاصراً من الجميع مغضوباً عليه من الجميع ...

وحين مات سنة ٤٥٦هـ تنفست الأحقاد الأرضية الصعداء . انتهت قضيتها بموته ولكن قيمة ابن حزم العلمية بقيت ... بقيت لم تستطع كل تلك الأحقاد الصغيرة إطفاء تألقها إلى اليوم !

الأفشين ...

الزمان : في شهر صفر من سنة ٢٢٣ هجرية .

المكان : سامراء، عروس العواصم الجديدة، التي بناها الخليفة المعتصم قبل سنوات معدودة لتكون عاصمة الدنيا فكانت ... وبقيت كذلك نصف قرن ثم انطفأت فجأة ليعود إليها الهدوء والوحش والعنكبوت ولتقفز ... كأنما حلمت البيد حلماً هناك ... ثم انقضى الحلم ...

هذه المدينة كانت كلها مختبطة في ضجيج وهرج ومرج سكانها، انساحوا على طرفي الشارع الأعظم الممتد حوالي عشرين كيلومتراً، والخليفة المعتصم في قصره المسمى (دار العامة) والقواد والكبار بعضهم من حوله ينتظر وبعض ذهب في مواكب إلى ظاهر البلد ينتظر وصول القادم. وكان القادم هو القائد الأفشين ومعه الثائر الذي أعجز الدولة عشرين سنة : بابك الخرمي ... الفرحة بانتهاء الحرب مع هذا الثائر كانت تفيض بالناس من الخليفة حتى الصيادين على دجلة ... وكان المعتصم يوجه إلى الأفشين في كل يوم من حين سار من منطقة الجبال إلى أن وافى سامراء، خلعه وفرساً، فلما صار عند قناطر حذيفة بظاهر سامراء حتى تلقاه هارون الواثق ابن المعتصم وأهل بيت المعتصم معه. ونزل الأفشين في قصره بالمطيرة ومعه بابك فأتاه قاضي الدولة أحمد بن أبي دؤاد متنكراً ينظر ويحاور هذا الذي دوخ جيوش الدولة وكلفها

عشرات الملايين من الدراهم ومئات الألوف من الأرواح . فلما رجع إلى المعتصم يصفه له لم يمسك المعتصم نفسه فأتاه بدوره متنكراً يراه . . . .

وفي الغد جلس المعتصم مجلساً عاماً واصطف الناس في قصر المطيرة إلى باب العامة واركبوا بابك على فيل ليستشرفه الناس جميعاً . وأدخل دار المعتصم فقتل ثم صلبت جثته في سامراء ورأسه في خراسان ... أما الأفشين فكان يومذاك في يوم من أيام الأحلام : ألبسه المعتصم وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم عدا عشرة ملايين أخرى يفرقها في جنده وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه ويشيدون ... كان ذلك يوم الأفشين الأغر .

لم يكن أحد ليتنبأ بعد هذا الاحتفال الهائل . أن يجلس الأفشين نفسه ، في مكان بابك وعلى النطع نفسه وبعد سنتين . بلى ! ... لا أكثر من سنتين ! كان يبعد هذا التنبؤ أن الأفشين كان من أبطال معركة عمورية الشهيرة بعد ذلك . وكان لهذه المعركة بدورها رنينها البعيد في الإسلام فكيف دارت القضية واستحكمت الدوائر ؟

هل كان الأفشين من الحمق بحيث يلقي نفسه بيديه إلى التهلكة ؟

إن الرجل من أمراء الترك في أشروسنة قبل إسلامه . واسع الثقافة حسن الاطلاع على الدين الإسلامي واللغة العربية وعلى الفلسفة ولا تنقصه المعارف الطبية ولا العسكرية وكان أبوه من قبله في خدمة المأمون والمعتصم ولكنه ـــ فيما يبدو ـــ وقع في مشكلة التوفيق بين وضعه السابق كأمير مؤله في شعب معين وبين وضعه الجديد كمسلم وقائد حربي في دولة غريبة عن بلاده وقومه . محاكمته لا تدع مجالاً للشك في هذا . وإذا كانت هذه المحاكمة تكشف من جانب المعتصم وحاشيته أنها كانت سياسية وإن أخذت الشكل الديني فإنها تكشف من جانب الأفشين أنه لم يتخل نهائياً عن شعوبيته وأنه إلى

حد من الحدود لم يكن عميق الإيمان بالإسلام . ولا كامل الولاء للدولة ! ...

أول ما انكشف من أمراء الأفشين ما حمله أصحاب البريد عند عبد الله بن طاهر والي خراسان . والبريد كان مخابرات الدولة يومذاك كتبوا أنه كان لا تجتمع عند الأفشين كمية من المال وهو في حرب بابك إلا أرسلها إلى أشروسنة .

ثم انكشف للمعتصم تحريض الأفشين لثائر على عبد الله بن طاهر يدعى المازيار ولثائر آخر يدعى الفرغاني وكان الأفشين يطمع في أن يحل محل ابن طاهر في خراسان ليكون في أرضه قرب جماعته ....

واستشار المعتصم قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار بتحجيم الأفشين فقسم المعتصم الجيش قسمين وأبقى له قسماً وأعطى القسم الآخر للقائد أشناس ...

وغلا الحقد في صدر الأفشين . إن المعتصم لم يقلل فقط من مكانته ولكنه أزاحه عن المركز العسكري الأول . وجعل أشناس عديلاً له . وتوترت العلاقة بين الخليفة وقائده وبدأت القضية تأخذ لدى المعتصم المنحى الخطير حين أدرك أنها مؤامرة واسعة يحوك الأفشين وأطرافها في الخزر والمازيار والفرغاني وأهل أشروسنة . وشعر الأفشين بالخطر يحيق به في تصميم الخليفة وحاشيته معاً — فيما يقولون — ضده ثم فكر في الهرب . ولكنه المعتصم كان أسرع تدبيراً منه والجواسيس ناقلو الأخبار كثيرون ... بعث إليه فما جاء القصر حتى أخذ وسجن في سجن مرتفع . واحتال عبد الله بن طاهر على ابنه الحسين في خراسان فأرسله مقيداً إلى سامراء .

كانت القضية قضية كبرى هزت الجيش كله وبلبلت الدولة ، وخشي المعتصم أن يستوحش الأمراء الآخرون من هذا الانقلاب المفاجىء فقرر عقد محاكمة علنية للرجل يرأسها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات . بعضوية

القاضي ابن أبي دؤاد وصاحب الشرطة إسحق بن إبراهيم . في دار العامة ، قصر الخلافة عقدت المحكمة التي يبدو أنها تدبرت طويلاً أدلتها وجمعت الشهود في حرص :

ــ قدموا إليه إماماً ومؤذناً من أشروسنة جلدهما ألف جلدة لأنهما حولا بيتاً من بيوت النار إلى مسجد .

ــ فقال : لقد خرقا عهداً بيني وبين ملوك الصفد .

ــ وقدموا إليه كتاباً محلى بالذهب والجوهر والديباج وجد عنده وفيه كفر كما قدموا بعض الأصنام .

ــ فقال : شيء ورثته عن آبائي ولست بحاجة إلى جوهره وذهبه فتركته .

ــ وذكروا أنه كان يأكل المخنوقة ويزعم أنها أرطب لحماً ... فرفض ذلك وشكك في شهادة من شهد به .

ــ وقالوا أنه لم يختتن . فقال : أنه خشي على نفسه ذلك ولم يعلم أن في تركه خروجاً على الإسلام .

ــ وقالوا أن أهل أشروسنة يكتبون إليه بلغتهم إلى إله الآلهة من عبده فلان فقال : أنها عادة جارية لآبائه وأجداده من قبل وكره تغييرها لئلا تفسد طاعتهم ....

ــ وأتوه باعتراف المازيار والفرغاني الثائرين عليه فقال : إن اعترافهما لا يلزمني . كان هذا كافياً لأن تحكم المحكمة بإدانة الأفشين وهو حكم مبيت من قبل ....

لكن المعتصم لم يقتله . تركه يموت جوعاً في السجن ! ...

وتموت معه مشاريعه وقضيته ! ...

شهداء مايو ١٩١٦

منذ تسع وسبعين سنة وعلى الضبط في ٦ أيار / مايو / سنة ١٩١٦ أفاقت دمشق عند الفجر على سبع مشانق علق عليها سبعة من كبار رجال البلاد وقامت في الوقت نفسه بيروت على أربع عشرة مشنقة أخرى ... ولم يكن هؤلاء هم كل المحكومين بالإعدام. فقد كان الحكم يشتمل ثلاثاً وثلاثين شخصية بالموت ويحكم على شخصيات أخرى بالسجن، وأخرى بالنفي إلى الأناضول.

الفجر كله كان أحمر أغبر. ومع أن شوارع المدينتين كانت خالية تقريباً من الرجال الذين سيقوا إلى آتون الحرب العالمية الأولى (التي عرفها آباؤنا بالسفر برلك) فإن مواكب النسوة بالملاءات السود السابغة تكاثرت في ساحتي المرجة من دمشق والبرج في بيروت لتشهد المنظر الفاجع الحزين... منظر شهداء أيار. المشهد كله كان صمتاً أمر من البكاء.

بعد ساعة من الفجر قرأ الناس في عدد خاص من جريدة الشرق التي تصدرها السلطات العثمانية قصة هذه المشانق... كانت الحرب العالمية الأولى قد مضي عليها ما يقرب السنتين وكان جنوب الشام إحدى جبهاتها الخطيرة. كما كان جنوب العراق كذلك. فالإنكليز كانوا من مصر ومن الخليج العربي يضغطون لهزيمة السلطة العثمانية على الجبهتين. وإذا اخترقوا جبهة العراق الجنوبية عند البصرة فإنهم لم يستطيعوا اختراق قناة السويس باتجاه فلسطين...

كانت جماعة الاتحاد والترقي التي تسيطر على السلطة العثمانية وسلطاتها

محمد رشاد قد اختارت لقيادة الجيش الرابع في الشام وقيادة الجبهة في جنوبه ضابطاً من أكفأ ضباطهم وأكثرهم تعصباً طورانياً في الوقت نفسه: أحمد جمال باشا، وقد قدم الرجل إلى البلاد يحمل تعليمات بالتقرب من أهلها، وبالإلحاح على استثارة الشعور الديني فيها. إنه نقطة اللقاء بين العرب والترك... ومع أنه قد وقعت في يده وثائق عديدة عثر عليها في قنصليتي فرنسا في بيروت ودمشق حول اتصال عدد من المثقفين والسياسيين العرب بهاتين القنصليتين فإن هذه الوثائق بالنسبة للكثيرين منهم لم تكن تكفي للإدانة بشيء خطير...

وقدمت الشام أبناءها وقوداً للحرب كما قدمت مؤنها للجيش وقدمت أشجارها حطباً للقطارات. كل ما طلب منها كان في يد ممثل السلطان. ولكن كل استعدادات جمال باشا لاختراق الترعة ذهبت هباءً. وفشل الجيش العثماني الفشل الذريع في شباط / فبراير / ١٩١٥... وتراجعت الفلول أشلاء وجياعاً وضائعين على رمال سيناء...

وشعر جمال باشا بحرج مركزه في الشام أثر هذه الهزيمة وضاقت المؤن على الناس وبدأت النقمة تتفجر والشباب ينقصون وشعر بضياع الأرض تحت رجليه حين عرف أن الإنكليز يحاولون الاتفاق مع بعض زعماء العرب في الحجاز ضد الدولة فأرسل الفرقة الخامسة والعشرين في جيشه وهي الفرقة العربية إلى جبهة غاليبولي وشنق قلعة واستبدل بها جنوداً من الأتراك. ولكن النقمة زادت حين حاصر الحلفاء سواحل الشام الحصار الاقتصادي واستنفدت حاجات الحرب ثروة البلاد وارتفعت أسعار البضائع الأجنبية الارتفاع الجنوني وصادرت السلطات الخيول والبغال والمواد الغذائية والوقود ومواد البناء لمصلحة العمليات الحربية وشح الخبز واللحم والخضار وبدأ الناس يموتون بالعشرات ثم بالمئات على الطرقات من الجوع بعد أن عزت عليهم الحشائش

وقشور البطيخ والبرتقال وأوراق الشجر وسحبت الدولة العملة الذهبية والفضية من أيدي الناس واستبدلت بها عملية تركية ورقية لم يقبل بها أحد . ولكن الجند كانوا يستبدلون بها الذهب قسراً . وزاد الطين بلة انتشار الأوبئة والأمراض السارية كالتيفوس وفقدت الأدوية ....

وكان آخر ما لجأ إليه جمال باشا هو الوثائق التي بين يديه والتي وجدها في قنصليتي فرنسا ... إن فيها ما يمكن أن يؤدب به الزعماء فلا يتحرك منهم أحد ...

وأحال الأوراق إلى المحكمة العسكرية العرفية .... كان أول المحكومين الراهب يوسف الحايك الذي كان يتبادل الرسائل مع رئيس مجلس النواب الفرنسي وتلاه تنفيذ الإعدام في أحد عشر شخصاً في بيروت (آب / أغسطس / ١٩١٥) منهم محمد المحمصاني أحد مؤسسي حركة العربية الفتاة ثم تلاه جماعة في نيسان / أبريل / ١٩١٦ وأخيراً جاء الفوج الأخير الذي علق على المشانق في ٦ أيار / مايو / ١٩١٦ .

في صدر جريدة الشرق كان بيان جمال باشا يقول :

« إن الوثائق التي عثرنا عليها واعتراف عبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد واعتراف سيف الدين الخطيب عضو محكمة بداية حيفا ورفيق رزق سلوم ضابط الاحتياط ورفقائهم الآخرين قد أوضح انتماء هؤلاء الأشخاص إلى حزب اللامركزية وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عالية صدرت الأحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين والفارين كل حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة فحكم على فلان وفلان وفلان ... (وعدد البيان ثلاثة وثلاثين اسماً) بالإعدام وجرى إعدام الموجودين منهم هذا الصباح وسائر المجرمين الآخرين

صار سوقهم إلى المنفى والحبوس . وعلى هذه الصورة تقرر إذن في سورية وفلسطين السكوت والأمن المحتاج إليهما إلى الأبد . ومن إنعام النظر في الوثائق يفهم أولاً أن هؤلاء الأشخاص قد ضحوا بلا تردد جميع مالديهم من المقدسات الدينية والوطنية لقاء منافعهم الخسيسة والمادية وإن هؤلاء الأشخاص قد اشتركوا في مساعيهم ونفوذهم مع أعداء الدولة وسعوا في إعداد الطاعة في الداخل لتجاوزات الأعداء في الخارج وإني أوصي جميع الأهلين في سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة ... قائد الفيلق الرابع وناظر البحرية : أحمد جمال ، قبل يوم واحد كان الأمير فيصل بن الحسين في دمشق يتوسط لدى جمال باشا ويقيم له دعوة في الغوطة لتخفيف الحكم ولكن جمال باشا فضل البطش قبل اتساع التدخلات وأعطى الثورة العربية بذلك مبررها ....

وكانت مشانق أيار / مايو / ١٩١٦ الحد الفاصل في تاريخ طويل بين العرب والترك دام قرابة ألف سنة وكانت هي القضية الكبرى التي فجرت العلاقات بين الشعبين ... وقطعتها إلى الأبد !

أحمد بن نصر الخزاعي

أحمد بن نصر الخزاعي ؟ أحمد بن نصر الخزاعي ؟

حتى المختصون بالتاريخ الإسلامي ، وبالتاريخ العباسي بالذات قد لا يذكرون هذا الاسم المغمور ومع ذلك فقد كان ذات يوم قضية كبرى بمحاكمة كانت محاكمة للنظام كله . ثورة جامحة هددت الحكم لأنه كان رمزاً للرفض الكلي للدولة في رأيها الديني وفي ممارساتها السياسية على السواء . . . .

بيت الرجل كان من البيوت التي أقامت أركان الدولة العباسية فجده مالك بن الهيثم كان أحد نقباء بني العباس الاثني عشر وأحمد بن نصر نفسه من كبار علماء الحديث . كثيرون أخدوا عنه . وكان إلى هذا وذاك محبوباً في العامة لأنه من العلماء العاملين بالدين . ليس من مسافة بين القول والعمل عنده يوم اضطربت بغداد بعد الفتنة بين الأمين والمأمون ما بين سنتي ٢٠١ و ٢٠٤ كان أحد زعماء الحركة الشعبية التي عملت على الأمر بالمعروف النهي عن المنكر . وكسب بذلك أوسع الرصيد الشعبي لدى الناس .

هذا الرصيد ، بالإضافة إلى دالته ودالة أبيه وجده في الدولة وإلى تدينه العميق سمح له أن يتحرك في بغداد ضد المأمون يوم أعلنت الدولة القول بخلق القرآن ، فلما رأى المحنة وامتحان الناس فرداً فرداً بها ! ... يومذاك وقف أحمد ابن نصر المعتصم كما وقف من قبل وتحرك ضد المأمون وكما وقف من بعد ضد الخليفة الواثق وبسط لسانه ضد القول بالقرآن المخلوق . لكن من ذا الذي يجرؤ على اضطهاده ؟ حتى قاضي الدولة الرسمي أحمد بن أبي دؤاد لم يكن يملك

الجرأة على الكيد له . لكنه ذات يوم اختلف معه في بعض الأمر . ويبدو أنه كان أمراً يتصل ببعض نفقات الناس فرده ابن أبي دؤاد . فانصرف أحمد بن نصر ذاماً له . وبسط لسانه فيه . وشهد عليه بالكفر . ثم استطال على الخليفة الواثق رغم غلظة هذا الخليفة عليه . وسمعه الناس يقول : ألا فعل هذا الخنزير وهذا الكافر ؟ وفشا ذلك من أمره . حتى أضحت حلقاته العلمية مركزاً من مراكز المقاومة الدينية والسياسية في بغداد . فخوف بالسلطان وقيل له قد اتصل أمرك به . فبدأ يدبر الثورة في السر . فالرجل كان يقول منذ أيامه الأولى بالثورة على السلطان الجائر . وله في ذلك تاريخ سابق فقد طالبه أصحابه بالعمل ضد الدولة سلاحاً وثورة لا شتيمة وقولاً ...

أثناء ذلك استتر سنوات عديدة أيام المعتصم يدير الثورة ! .

فلما كانت أيام الواثق ظهر يعلم الناس الحديث النبوي لكنه يرفض العقيدة الرسمية القائلة بخلق القرآن ويبسط لسانه رغم غلظة الخليفة الواثق ضد القول بالقرآن وضد من يقول بهذا القول ....

وأخذت حركة نصر شكل المؤامرة على الدولة ، والثورة لخلع الواثق نفسه ، هيأت لها البنود والأعلام . ونظمت عناصر الثورة . وحددت لها مراكز التجمع في ظاهر بغداد عند ضرب الطبل ساعة الصفر . وجمعت لها مخازن الأسلحة . تولى ذلك اثنان من أتباع نصر ، لكن الاختلاف في ساعة الصفر كشف بعض الثائرين الذين انحازوا إلى ناحية صحراوية خارج المدينة فأخذوا وأقروا على الحركة كلها (شعبان ٢٣١) وقبض على أحمد بن نصر وسيق من بغداد إلى سامراء مقيداً مع خمسة من الزعماء الآخرين على بغال لا سرج عليها . ومع أعلامه التي كانت خضراء فيها . وجلس الخليفة الواثق للرجل مجلساً عاماً يحاكمه فيه القاضي ابن أبي دؤاد . لم يناظره الواثق في الشغب . ولم يحاسبه فيما رفع إليه من أمر الثورة والخروج على الخلافة . كان يعرف أنه خاسر

لو أدار المحاكمة إلى الجو السياسي. حاكمه على الأمر الديني، على المذهب الرسمي، على رفض الاعتزال، سأله في الأمر الذي لا بد قائله: في خلق القرآن، إن أحمد بن نصر لا يستطيع أن يغير هاهنا رأيه الديني ولا أن يهرب منه... وهو القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال نصر:

ــ القرآن كلام الله، فسئل أمخلوق هو؟ قال هو كلام الله!

وسأله الواثق عن رؤية الله يوم القيامة فقال: كذا جاءت الرواية ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته فجمجم على الخبر، فقال الواثق: تكذب فقال للواثق بل تكذب أنت وصدق رسول الله.

وقال الواثق: ويحك! يرى كما يرى المحدود المتجسم ويحويه مكان ويحصره الناظر؟

إني كفرت برب صفته ما تقولون فيه... وحضر عدد من الشهود فشهدوا على أحمد بن نصر بمخالفة المذهب الرسمي بخلق القرآن. وقال قاضي من الحضور: هو حلال الدم وقال ذلك ثان، وثالث فقال الواثق.

إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطابي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها!

ثم أمر بالنطع فأجلس في وسطه وضرب عنقه!

وصلبت جثته في سامراء في حين أمر الواثق بصلب الرأس في بغداد وفي أذنه رقعة كتب عليها:

هذا رأس أحمد بن نصر، دعاه الإمام إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة فعجله الله إلى ناره!...

كانت حركة نصر قمة المقاومة العامة لمذهب خلق القرآن وقد تركت أثرها السيء العميق في نفوس الناس لدرجة أن المتوكل حين هم بعد سنوات بأن

ينزل الرأس المصلوب شعر أن حركة شعبية واسعة ستقوم للاحتفال بدفنه فأبقاه فترة حتى أنزل سنة ٢٣٧ ...

فتزاحم الناس يتمسحون بجنازته ! ...

يومذاك كانت قضيته الكبرى قد انتصرت وألغي عن الناس مذهب الاعتزال ! ...

أبو مسلم الخراساني

لهذا الاسم رنين الأجراس في التاريخ الإسلامي . ومن ذا الذي يجهل أبا مسلم الخراساني ؟ الكثيرون يذكرون أنه أقام الدعوة العباسية ! ... ومنذ وقت مبكر جداً كان أبو مسلم قد تحول بطلاً قومياً في خراسان ثم صار شخصية دينية في منزلة الأئمة والأنبياء حتى لدى الترك ... بل ورثت ابنته فاطمة صفات الشخصية الأمامية لتقوم باسمها فرقة دينية ولتنسج من حول أبيها ومن حولها الأساطير والطيران في الأجواء ...

والرجل أهون من ذلك بكثير وأصغر بكثير . لفته الأخبار بالأوهام طولاً وعرضاً حتى تضخم وصار نوعاً من السوبرمان الخيالي .... وهو ليس أكثر من مغامر محدود الدور والأثر ... وإنما صار إلى ما صار إليه لأنه كان ، في عهده ، قضية كبرى وانتهى بمحاكمة أكبر قبل أن ينطفىء ... أمام الأوتوقراطية العباسية !

يوم دخل الدعوة السرية العباسية لم يكن يزيد في العمر على الرابعة والعشرين ويوم قتل لم يكن يزيد على السادسة والثلاثين . ومن هذه السنوات الاثنى عشر قضى ثلاثاً بين الكوفة والحميمة مركز العباسيين في الأردن ، يتمرس بالدعوة ، وحين أرسل سنة ١٢٧ إلى خراسان قائداً للثورة لم تكن القيادة العليا له ولكن لزعيمها السري سليمان بن كثير الخزاعي ...

وبعد أن خرج جيش الثورة من خراسان سنة ١٣١ لم يعد لأبي مسلم من دور سوى البقاء في خراسان ... والحفاظ على مقر الثورة. أما الجيش

والثوار والسيوف فتحركت من خراسان إلى العراق وأخذت الكوفة بقيادة قحطبة الطائي وابنه الحسن ونصبت أبا عبد الله العباسي خليفة جديداً وانتصرت في معركة الزاب وأخذت الموصل والجزيرة والشام ومصر بقيادة عبد الله بن علي العباسي والخليفة الجديد وأخذت البصرة بقيادة أخي الخليفة أبي جعفر عبد الله (المنصور فيما بعد).

ومرت أربع سنوات بعد ذلك، كان فيها العباسيون مشغولين بالدولة وتنظيمها فاستغلها أبو مسلم في التمكين لنفسه ولنفوذه في مشرق الدولة. قتل الكثير من الدعاة الكبار وانتهى بقتل الزعيم نفسه سليمان بن كثير الخزاعي دون علم الأسرة العباسية وطرد من البقاع التي يسيطر عليها ولاة الخليفة بل طرد أيضاً عم الخليفة عيسى بن علي وجعله يحلف ألا يعلو منبراً ولا يحمل سيفاً إلا في جهاد! وزار أبو جعفر أخو الخليفة خراسان فعاد مرعوباً يقول لأخيه: لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً!! فاحتل لنفسك قبل أن يفسد عليك أمرك فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه. ومثله لا يؤمن غدره ونكثه...

وانفجرت فجوة كبيرة بين رجلي الخلافة العباسية الأخوين وبين أبي مسلم وإن ردمها الجانبان بالصبر والتربص. وأراد أبو مسلم أن يسبر مدى قوة الدولة وإمكانها ضده فاعلن أنه قادم إلى الحج. مشى في عشرة آلاف مسلح. ولما كانت العراق في منتصف الطريق بين خراسان والحجاز كان لا بد أن يمر بالعراق في هذه المظاهرة المسلحة. وجاء بالفعل. وإذا منعوه من الدخول إلى الأنبار مقر الخلافة بذلك العدد فقد ذهب به إلى الحجاز ووهب الهبات على الطريق وأصلح الآبار وسوى الطرقات وتصرف في مناسك الحج تصرف الملوك مع وجود أبي جعفر أخي الخليفة... بل كان يتقدمه في الطريق ويتحداه في الموسم...

هذا هو أبو مسلم... كان مشكلته تكبر وتكبر مع الزمن... ولما مات

أبو العباس الخليفة الأول فجأة سنة ١٣٦ فيما كان أبو جعفر وأبو مسلم عائدين من الحج انفجرت المشكلة . لقد عهد لأخيه أبي جعفر بالخلافة ... ولعب الخليفة الجديد لعبته بمنتهى الحذر والقسوة ...

كان أبو مسلم قد أضحى شخصية أضخم من أن تحتمل ثقلها الدولة . صار قضية خطيرة أضحى الشغل الشاغل للكثيرين الذين ينتظرون ما سوف يصير إليه صراع القرنين . وأخذ أبو جعفر بالملاينة مع أبي مسلم أول الأمر ليوجهه إلى خارج خراسان يعرف أن قاعدته هناك فإن عاد إليها أضحى اقتلاعه من مشكلات الأمور . أرسله إلى قتال عمه عبد الله بن علي الذي ثار في شمال الشام وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من ابن أخيه وكان أبو جعفر لا يبالي أيهما ذبح الآخر . فلما انتصر أبو مسلم كان كل هم أبي جعفر ألا يدع أبا مسلم يرجع إلى خراسان . أعطاه ولاية الشام ومصر فرفض فبعث عليه بأعداد لا تنقطع من الأنصار مبشرين ومنذرين يزينون له العودة إلى الخليفة ... ومع أن أبا مسلم كان يتوجس منه الخيفة ويصر على اللحاق بخراسان إلا أنه في النهاية وأمام رسل الرياء الذين دسهم أبو جعفر قبل لقاء الخليفة على مضض فيه الكثير من التكبر ومن اللامبالاة وسيقت الطريدة سوقاً رفيقاً إلى المذبح ...

لم يشأ أبو جعفر أن يكون قتل أبي مسلم دون محاكمة . القضية كانت كبيرة جداً هي نصف الدولة الشرقي . وكانت المحاكمة . ولكنها كانت هزيلة جداً ... أبو جعفر كان قاضيها الوحيد كان فيها الخصم والحكم وكان أعوانه هم الشهود على الحكم كما كانوا أدوات التنفيذ ! ...

دخل أبو مسلم على أبي جعفر فقال الخليفة :

أخبرني عن نصلين أخذتهما من متاع عمي عبد الله .

فقال : هذا أحدهما الذي عليَّ ، قال أرنيه فانتفاه فناوله فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه ثم أقبل عليه يعاتبه دراكاً :

ــ أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن الموات. أردت أن تعلمنا الدين؟

ــ أخبرني عن تقدمك إياي في الطريق؟ وعن تقديم اسمك على اسم الخليفة في الرسائل.

ــ أخبرني عن تأخرك في بيعتي وعن تحريض عيسى بن موسى على التمرد وطلب الخلافة.

ــ أخبرني عن قتل سليمان بن كثير الخزاعي دون استشارة الامام وعن قتل فلان وفلان وعن قتل ٦٠٠ ألف من المسلمين صبراً...

ــ أخبرني عن خطبتك لآمنة بنت علي وادعائك النسب إلى عمي سليط بن عبد الله العباسي!

ومع توالي الأسئلة تلعثمت الأجوبة واضطربت وفهم أبو مسلم مصيره.

فلما صفق أبو جعفر برزت السيوف من وراء الأستار تنوشه صرخ!

استبقني لعدوك فقال أبو جعفر: وأي عدو اعدى لي منك؟..

وانتهت القضية الضخمة، قضية أبي مسلم كما انتهت محاكمته الخاطفة في نصف ساعة!

وتكفل المال الذي وزعه أبو جعفر بتفريق الآلاف الذين كانوا يحملون السيوف وراء أبي مسلم!... وسقط الرجل... لتبدأ الأسطورة في الكبر والتضخم على الألسنة الشعبية... عدة قرون! بلى بقيت عدة قرون!...

غيلان الدمشقي

الصحابة الأولون رضي الله عنهم وأرضاهم كانوا يكرهون الجدل واللحاح في أمور الدين. يخشون افتراق الكلمة وكان أشدهم في ذلك الصحابة الذين نزلوا الشام كمعاوية بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء ولكن ذلك لم يمنع الناس وفي الشام نفسه من الجدل، ومن الإلحاف في الجدل ومن تشقيق الكلام، وما أتى القرن الهجري الأول إلى نهايته حتى كان في الشام أعداد ممن أحدثوا في الدين مسائل شتى فأحدث لهم العلماء أجوبتها وخاض أولئك وهؤلاء كل الخوض في أمور القدر والجبر... وظهر علم الكلام... الإمام الحسن البصري كتب إلى الحجاج في ذلك.

«... إنه كلامه تعالى ليس بكلام للعبيد. ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس الفكرة له...».

هذا الجدل الديني الذي كانت تغذيه دوافع عديدة منها: تثبيت الإيمان بالمنطق العقلي، ومنها تساؤلات الداخلين جدداً إلى الإسلام ومنها وساوس أصحاب الديانات السابقة صارت في الشام أيام عمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابني عبد الملك، إحدى قضايا الناس، كثر المتحدثون فيها والمجادلون وكثر أصحاب الآراء. إياس بن معاوية، الحسن البصري، الإمام الأوزاعي المدفون في بيروت، (يوحنا) يحيى الدمشقي النصراني، معبد الجهني. الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الشامي. أبو حمزة الصوفي...

الجعد بن درهم ، صالح بن سويد .... وغيلان بن يونس الدمشقي ! ...

دعونا نلتقط من هؤلاء غيلان الأخير أبا مروان ! ... ويقولون إنه من الموالي كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ... ويبدو أنه كان في شبابه الأول عابثاً وقد أخذوه في شهر رمضان يرامي النساء بالتفاح . ثم صار من أتباع المتزهد الحارث الدمشقي ، حاجباً لامرأته يزعم أنها أم المؤمنين . ثم انصرف إلى البلاغة والكتابة فصار من كتاب بني أمية البارزين وأعانته بلاغته على الجدل والبحث في القدر فدرس المنطق والفلسفة وكتب الكثير وكانت رسائله مجموعة تبلغ ألفي ورقة ! .

برز الرجل على رأس المائة الأولى للهجرة أيام عمر بن عبد العزيز وكان يقول بالقدر ... ما القدر ؟ هو القول بأن الإنسان صانع أفعاله وكان عمر على خلاف هذا الرأي فأتى به مع زميله صالح بن سويد فقال : علم الله نافذ في عباده أم منتقض؟ فقالا بل نافذ قال فغيم إذن هذء الكلام ؟ وأخرجهما ... ومرض بعد ذلك مرض الموت وبلغه أنهما أسرفا فأرسل إليهما وهو مغضب فقال :

ــ ألم يكن في سابق علم الله حين أمر إبليس بالسجود أنه لا يسجد ...

فأومأ إليهما حاجبه عمر بن المهاجر أنه قولا نعم ! فقالا نعم فأمر بإخراجهما وبالكتابة إلى مناطق الشام (وأجنادها) بخلاف ما قالا ...

ويذكرون أن غيلان أوضح سبب مقالته لعمر قائلاً له في رسالة : أن بعض العامة يقولون أن ظلم الحكام هو بقضاء من الله فقال بمقالته لينبه إلى هذا الخطأ ! والي أن الإنسان مسؤول عن أعماله وهذا هو أساس عدل الله . فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب أو يعذب على ما قضى أو يقضي بما يعذب عليه ؟ ... ويقولون أن من أقواله أن المعرفة قسمان : فطرية ضرورية وأخرى مكتسبة فالأولى هي المعرفة الثابتة بالله والمحبة

والخضوع له والإقرار بما جاء به الرسول . وأما الثانية فهي الإيمان ... هل هذه هي كل آراء الرجل ؟

لو كانت إذن لما كانت تلك القضية الكبرى التي تصل بصاحبها إلى المحاكمة فالموت ....

إن له آراء تطل على السياسة .... والسياسة مركب صعب قد يؤدي بصاحبه إلى الهاوية ... ولا يذكرون أنه جادل أو أطال الجدل في وجود بعض الخلفاء . كان غالباً ما يؤثر الصمت . ولكنه بليغ السن حين يكون مع الناس .

غيلان الدمشقي كان يقول : بأن الإمامة ، إمامة المسلمين يمكن أن يليها من كل المسلمين من كان كفؤاً كفياً لها . ليس من الضروري أن يكون من آل النبي ولا أن يكون قرشياً . ولكنها لكل من كان قائماً بالكتاب والسنة وكان مستحقاً لها . ولا تثبت إلا بإجماع للأمة . ووقف أكثر من هذا ضد الأمويين .

يذكرون أن عمر بن عبد العزيز ولاه الخزائن التي وجدها في الخضراء حين ولي الخلافة فكان يبيعها وينادي تعالوا إلى متاع الظلمة ! وكان فيما نادى عليه جوارب من الخز غالية الثمن جداً قد ائتكلت فقال غيلان : من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء أئمة هدى؟ وهذه الجوارب تؤتكل والناس يموتون من الجوع ...

آراء غيلان الدينية والسياسية على السواء أثارت عليه الثائرين والفقهاء والمحدثين وأهل الدين . صار قضية تهز الناس ومنعه عدد من العلماء ومنهم مكحول من مجالسهم وقال مكحول لبعض أصحابه أن دعاك غيلان فلا تجبه وإن مرض فلا تعده . حسب غيلان الله . فقد ترك هذه الأمة في لجج !

ووقف الإمام الأوزاعي بعنف في وجه غيلان كما وقف الموقف نفسه رجاء ابن حياة وعبادة بن نسي ونمير بن أوس قاضي دمشق . وأما في السياسة فيذكرون

أن هشام بن عبد الملك حقد عليه لأنه كان يعيبه ويعيب آباءه مع أنه كان راضياً عنه أول أمره وهرب غيلان إلى أرمينية فجيء به .

وعقد له الخليفة مناظرة مع الإمام الأوزاعي أبلس فيها وسكت لا يحير جواباً كذا يقولون . وأفتى الأوزاعي بقتله . وكتب رجاء بن حياة إلى هشام بن عبد الملك قتله أفضل من قتل ألفين من الروم ! ...

أما غيلان فيذكرون أنه قطعت أولاً أطرافه فأقبل على الناس يقول : قاتلهم الله كم من حق أماتوه . وكم من باطل أحيوه . وكم ذليل في دين الله أعزوه وكم من عزيز في دين الله أنالوه فقيل لهشام : قطعت أطرافه وأطلقت لسانه . إنه قد أبكى الناس ! ...

فأمر فأجهزوا عليه ...

وانتهت بذلك قضية من القضايا الكبرى ... في ذلك العهد الأول .....

رصاصة تقتل ٢٥ مليون إنسان

بلى ! .. رصاصة واحدة ذهبت بعشرة ملايين إنسان قتيلاً وبخمسة عشر مليوناً آخرين بالمجاعة والوباء ... وقد أطلقت هذه الرصاصة في ساراجيفو . في يوغسلافيا ضحى يوم ٢٨ حزيران / يونيو / سنة ١٩١٤ ... إذا ارتبتم في هذا فهل يذكر أحد منكم الحرب العالمية الأولى ، حرب السفر برلك ؟ ...

القضية التي أطلقت هذه الرصاصة ، غرقت بسرعة في قضية أكبر منها هي قضية الزحام الأكبر على النفوذ الاستعماري بين الدول الأوروبية الكبرى ... نسي الناس القضية الأولى أمام الفجائع التي فجرتها القضية الثانية . والغريب أن صاحب الرصاصة القاتلة عاش مع أصحابه المتاجرين معه ليرى انجراف العالم كله وسقوطه في جهنم النيران نتيجة تلك الرصاصة ! ...

في سنة ١٩١٤ كان ما ندعوه اليوم بيوغسلافيا مجرد مقاطعات بعضها في الجنوب استقل قريباً ويدعى صربيا وبعضها نحو الشمال ومنها مقاطعتا البوسنة والهرسك وتتبع امبراطورية النمسا والمجر الواسعة المسيطرة على وسط أوروبا امبراطور هذه الدولة : فرانسوا جوزيف ، كان في الرابعة والثمانين من العمر وقد بقي على العرش ٦٨ سنة قضى منها حتى الآن ستاً وستين ... ومن يظن أن الملك سعادة فلينظر إلى مأساة هذا الامبراطور الشيخ الذي لا يكاد يعادله في طول عهده ملك آخر : كانت حياته مزروعة بالمآسي : أخوه مكسيمليان أعدم بالرصاص في المكسيك . وجنت زوجته شارولت حين علمت بذلك . ابن الامبراطور الوحيد رودولف انتحر في مايرلنغ . أخت زوجة

الامبراطور ذهبت في حريق سوق الاحسان . زوجته إليزابيث قتلت بخنجر أحد الإرهابيين . ابن أخيه لويس الثاني أصيب بالجنون ... وبقي الامبراطور وحده وحيداً إلى النهاية ... ليشهد النهاية بمقتل ابن أخيه وولي عهده مع زوجته في ساراجيفو بالرصاصة إياها قبل أن يموت هو نفسه والحرب العالمية في أوجها سنة ١٩١٦ .

ما القضية التي أطلقت الرصاصة ؟

القضية ببساطة أن شاباً اسمه غفريلد برنزيب من مقاطعة البوسنة قصير القد ضئيل الجسم ضيق الكتفين رفض تطوعه في الجيش لضآلة حجمه ، حمل مبادئ أكثر من جمعية سرية إلى أن وصل المنظمة التي تعمل على وحدة السلاف الجنوبيين . كان شعارها الاتحاد والموت . وتدعى بجمعية الكف الأسود وكان روحها المحرك وهو الكولونيل ديمتروفيتش الملقب بالكولونيل آبين . أراد هذا الشاب برنزيب أن يقوم بعمل بطولي يثبت للآخرين أنه مساوٍ لهم إن لم يكن في القد ففي الشجاعة فلم يجد سوى الاغتيال ... مامن شك في أنه كان مملوءاً بالوطنية ، وبالوطنية المتعصبة الحاقدة من رأسه إلى أخمص قدميه وأن الصدفة خدمته في جريمته التي جعلته فيما بعد من أبطال يوغسلافيا ... لكن الاغتيال يبقى الاغتيال ... ولا يمكن أن يكون حلاً للقضايا السياسية ....

وعمليات الاغتيال كانت موضة شائعة في تلك المنطقة البلقانية في تلك الفترة كما أن تشكيل المنظمات السرية كان موضة شائعة مثلها . وقد قتل ملك الصرب اسكندر الأول وزوجته وداغا سنة ١٩٠٣ وقتل الكثيرون قبله وبعده هناك في سلسلة متصلة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وصار من مظاهر وطنية الكثيرين من الصرب الرغبة في قتل واحد من الأسرة الحاكمة في النمسا آل هابسبورغ أو ممن حولها . وفي مطالع العقد

الثاني من هذا القرن صارت محاولات القتل عادية كما كان تكرارها يزيد في إثارة المشاعر الصربية والنمسوية على السواء.

وفي شهر آذار / مارس / سنة ١٩١٤ تلقى شاب من أعضاء الكف الأسود من أصدقائه في بلغراد رسالة ليس فيها سوى قصاصة جريدة فقط تعلن زيارة الأرشيدوق فرانسوا فردينان، مع زوجته للبوسنة وبدأت عناصر الظلام تعمل في الظلام تجمع من أعضاء الكف الأسود عدة نفر أخذوا الضوء الأخضر من زعامات لم يفصحوا فيما بعد عنها. جمعوا تحت شعار إنشاء مدرسة في الهرسك بعض المال. وتدبروا القنابل والمسدسات. سافروا مشياً ثمانية أيام على الأقدام من بلغراد إلى ساراجيفو عاصمة البوسنة... وبقوا هناك يتربصون!...

كان الأرشيدوق هو الذي اختار يوم ٢٨ حزيران / يونيو / لزيارة المدينة. إنه يوم الذكرى السنوية لمقتل السلطان العثماني مراد في بلدة كوسوفا على يد الصربي ميلوس أوبيليتش. وقد وصله عدة تحذيرات ولكن الأرشيدوق استهان بها ورفض الاحتياطات وقال: الخوف يشل الحياة إنه هو الخطر! كان نموذج الرجعي المحتقر للشعب وللأفكار الحرة. لم يكن يهمه في الدنيا سوى الصيد. طبيبه قدر ما اصطاده في حياته بمليون طريدة! وتوزع المتآمرون ثلاث مجموعات على الطريق التي سيمر بها الأرشيدوق. إذا فشلت واحدة أكملت العمل الأخرى.

كان يوم ٢٨ حزيران / يونيو / مشمساً رائعاً، والموكب يسيل بالفرسان والسنابك المجلجلة وقد حشدت له الحشود تصفق وتهتف: زيفيو! زيفيو! وترشق الزهور والأرشيدوق مع زوجته في سيارة مكشوفة يبتسمان للجماهير وكانت السيارة ابتكاراً لا يحظى به إلا كبار القوم... ظلال المآذن مع سراي محمد الثاني مع النهار الهادئ بجانب الشارع كانت تعطي المنظر الجو الرومانسي المثير... مر الموكب دون أي حادث على ثلاثة من المتآمرين. الأول

خاف . والثاني تردد في قتل امرأة . والثالث ظهر بقربه شرطي فلم يجرؤ وفجأة انفجرت قنبلة على مؤخرة السيارة رماها المتآمر الرابع . صاحب القنبلة ألقى نفسه في النهر فأدركوه لكن الأرسيدوق نجا بالفعل وصاح بالسائق أن يسرع إلى دار البلدية حيث كان رئيسها ينتظر مع الوجهاء وصول الضيف الكبير ليخطب أمامه خطبة التملق :

إن تشريف فخامتكم الامبراطورية في هذه الزيارة الرائعة التي تنازلتم بها لتشريف البلد ملأت قلوبنا بالحبور ... وصرخ الأرشيدوق : وفيم هذه الخطبة المجلجلة وأنتم تلقون عليَّ قنبلة ... خرس رئيس البلدية ... وقال الحاضرون حمداً لله على سلامتكم . زال الخطر الآن وأمر الأرشيدوق السائق بالعودة وفيما كان السيارة تناور لتدور وجد غفر يلدو برنزيب نفسه أمامها ، لم يكن يستطيع إخراج قنبلته فأطلق رصاص مسدسه ... اختبط الجمع وركضت السيارة ولكن مع جثتين في صدرها .

وتكاثرت الجموع على برنزيب . ألقى على الأرض ديس بالاقدام ضربه الشرطة بالسيوف وفقد الكثير من دمائه ولكنه مع ذلك لم يمت ... والتحقيق معه كشف الآخرين وسيق مع زملائه للمحاكمة ... ثلاث منهم كانوا دون العشرين فيهم برنزيب . في المحكمة التي عقدت في غرفة صغيرة وجمهور محدود جداً لم يكن ثمة ما يثير . المتآمرون التسعة عشر اعترفوا . لم يستطع القضاة تجاوز حلقتهم في الكف الأسود لأنهم يجهلونها والقضية اختلط فيها الإجرام بالوطنية . حكم خمسة بالإعدام والباقون بالسجن مدداً مختلفة ومنهم الذين كانوا دون العشرين ! وعاش برنزيب سنتين ليموت بالسل وليشهد عواقب رصاصته ...

لقد غضبت النمسا فأعلنت الحرب على الصرب ... ولكن نمو الصراع الاستعماري وتصاعد الروح العسكرية والقومية بين الدول الأوروبية أثارها جميعاً : وكما يخر المقيدون بالسلاسل إذ وقع واحد منهم كذلك انجرت أوروبا

بسبب المحالفات السرية فيما بينها وشملتها الحرب كما شملت مستعمراتها الممتدة على أطراف العالم .

وكانت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات .

تلاقى فيها ٦٠ مليون جندي ثلثاهم من الحلفاء، والثلث لدول أوروبا الوسطى . أنفق على الحرب ألف مليار فرنك ذهبي مات فيها ٢٥ مليون إنسان قتلاً وجوعاً ووباءً وذهبت أربع امبراطوريات كبرى إحداها السلطنة العثمانية .

كل ذلك بسبب رصاصة ... رصاصة واحدة !

الداوية .... فرسان الهيكل

ما بين أواخر أيلول / سبتمبر / وأوائل تشرين الأول / أكتوبر / من سنة ١٣٠٧ كانت باريس وعدد من المقاطعات في شرقي فرنسا خاصة تموج بحركة غير عادية، جنود الملك الفرنسي فيليب الجميل. كانوا يقبضون بأمر الملك على الجماعات التي كان ينظر إليها الناس على أنها أبطال الحروب الصليبية ورجال السيف فيها. ويسوقونهم بالسلاسل إلى السجون ... لم يكن قد مضى على طرد الصليبيين النهائي من الشام سنة ١٢٩١ سوى ست عشرة سنة ولم يكن ذلك كافياً لكي ينسى الناس ماقدمته هذه الجماعات في المشرق. من دماء وأشلاء وسيوف وفرسان خلال أكثر من ١٧٠ سنة ! ...

الآلاف المؤلفة من هذه الجماعات قبرت هناك في ربى القدس وطبرية وفي أرض دمياط وجبال الشام. وكتبوا بدمائهم جزءاً هاماً من تاريخ العدوان الصليبي هناك. إنهم « فرسان الهيكل » ويسميهم العرب الداوية أو الفداوية وقد عانى العرب المسلمون منهم أشنع العداء والحقد فماذا فعلوا ليجزوا هذا الجزاء ؟ وفي فرنسا أم الصليبيات ؟ ...

أسست هذه المنظمة العسكرية في القدس، أسسها فارس إقطاعي اسمه هوغ دو بايانز سنة ١١١٩ ووضع نفسه وفرسانه في خدمة الحجاج الأوروبيين إلى القدس للدفاع عنهم سمى الجماعة ميليشيا ولكن الاسم الذي اشتهرت كان هو اسم المكان الذي نزلته من جانب المسجد الأقصى الذي كانوا يسمونه بالهيكل. وقد استغل هوغ حماسة الغرب للحرب الصليبية فنال

اعتراف البابا بجماعته وجمع لفرسانه الكثير من المال والأوقاف في الشرق وفي أوروبا حتى أضحت بجانب الجيش الصليبي وبجانب منظمة مماثلة تدعى الأسبتارية هي الركائز في مثلث القوى الحربية التي قامت عليها الدول الصليبية في المشرق وأضحت الداوية كالأسبتارية دولة ضمن هذه الدول. أضحت جيشاً له نظامه وموارده وحصونه واستقلاله الذاتي. وجرت الداوية وراءها تاريخاً امتد حتى خروج آخر الفرنجة من الشام... وإذا خسرت بهذا الخروج ممتلكاتها في الشرق فقد كان لها في أوروبا آلاف العقارات والمزارع والأراضي... وقد خرج الفرسان أخيراً إلى هناك ليتابعوا حياتهم التي عاشوها في المشرق وبتلك الثروات: دولة ضمن الدولة!

نسوا أن ملوك أوروبا كانوا منذ أكثر من أربعة قرون يتصارعون مع البابوية لإزاحة ظلها عنهم وللاستقلال بالقرار في أراضيهم ودولهم. وما انحسرت موجة الاحتفال بالفرسان العائدين وانفضت عنهم الحماسة العامة حتى كان عليهم أن يواجهوا الحقيقة التي يرفضون الاعتراف بها: لا مكان لهم في إطار الدولة الغيورة على سلطاتها!

وسرعان ما أصبحوا قضية مقلقة للسلطة، كانوا يرفضون دفع الضرائب. كما يرفضون الانصياع لأي سلطة دنيوية أو دينية... حتى الاعتراف لم يكونوا يمارسونه إلا في إطار مؤسستهم. كانوا يحاولون، بثرواتهم الطائلة، الاستئثار بالتجارة والمصارف، وأخطر من هذا كله أنهم استمروا في تنظيماتهم العسكرية وفي تدريباتهم في معسكرات خاصة بنوها وقلاع أخذوا ببنائها لأنفسهم، بدعوى أنهم عائدون لاسترداد القدس... وإن لم يكن أحد ليصدق بذلك الحلم المستحيل. يضاف إلى هذا كله سلوكهم المتعالي على الناس. وإدلالهم بتاريخهم الحربي الديني حتى أضحت مشاعر الحقد الكبيت والغيرة والحسد والضيق تطوقهم من الجميع لا يمنعها من الظهور إلا بقية من

احترام لماضيهم الصليبي الطويل الذي بدأ رصيده بالتبخر ... في أوساط الدولة خاصة .

لقد انتزعوا مكانتهم بأمجادهم السابقة ولم يسلم بها الملك إلا مضطراً ولفترة مؤقتة ما كان في نيته أبداً أن يتركها تطول ، وقد حاول الملك فيليب الجميل احتواء الحركة بقبوله رئيساً شرفياً لها فرفض ذلك رئيسها جاك دي مولاي . وحاول بوساطة الباب أن يوحد مؤسستي الأسبتارية والداوية فرفض دي مولاي الوساطة ـ كان الداوية وهم يلاحقون علم العودة إلى القدس يحاولون الاستمرار في الحفاظ على كيانهم ومؤسستهم وخاصة ثرواتهم أما الملك فكان مفلساً يتخبط في أزمة مالية عنيفة وعينه على مصادرة المال الكثير من خزائن هذه الجماعة الغنية ومن هنا نفهم حماسته الشديدة لتوجيه الضربة إليهم ....

وحين شملتهم حملة الاعتقالات وسيقوا إلى السجون بالمئات في ثيابهم البيضاء السابغة التي تحمل الصليب الأحمر علي الكتفين والتي اختفت بعد ذلك من الطرقات ... اهتزت نفوس الناس ، رغم كل شيء ، ووجد فيهم من صاح : اللعنة على الملك ، الموت والعار لفيليب الجميل ! ....

لكن فيليب الجميل أنزل رسالة قرئت على الناس وألصقها الجند على الجدران تقول : من دواعي الأسى أن ينساق أناس يدعون خدمة الرب إلى أعمال شائنة وجرائم مروعة .

إن خدام الهيكل انقلبوا خداماً للشيطان . شهد على ذلك أناس عرفوا بالصدق والإيمان ... مما لا يدع مجالاً للشك في صحة التهم ...

وانفجرت القضية بهذا الاتهام الخطير وبينا كان فرسان الهيكل في السجون والتعذيب وكانت مراكزهم نهباً للغوغاء يسرقون ذخائرهم ويشربون خمورها انقسم الناس في أمرهم فريقين بين مصدق ومكذب وبين عاطف عليهم وحاقد في الشامتين ! وترقبت العيون نتائج المحاكمات التي استمرت وطالت سبع سنوات ! ...

استطاع التعذيب أن ينتزع من كثير من الموقوفين الاعتراف بخرق الدين كما انتزع من الكثيرين أرواحهم. وأراد البابا التدخل وأرسل كاردينالين للتحقيق وعادا يتحدثان بالفظائع فطلب من الملك إعادة التحقيق بحضور الكنيسة... ولكن ذلك لم يتم لأن الملك لوح للبابا بملف البابا السابق. لونيفاس الثامن فسكت... كان سابقه البابا مزيفاً وقد عين كثيراً من الكرادلة الذين كانوا هم الذين انتخبوا البابا القائم وكشف الأمر قد يكلفه الكرسي الرسولي نفسه! فاكتفى بإرسال لجنة تحقيق أخرى في حين كانت التحقيقات تجري في السجون تباعاً لأعضاء المنظمة بعد أن يمروا جميعاً في غرف التعذيب! وكان كثير منهم لا يصل. يخرج منها إلى القبور...

كان بعضهم يكفر بكل شيء وبعضهم يبكي وبعض يموت أو يجن ولكنهم كانوا في النتيجة يعترفون. هل كانت الاعترافات تدينهم أم كانوا أبرياء من التهم التي يحاكمون عليها؟ هل كانوا ضحايا سياسية أم كانوا يستحقون النهاية التي سوف ينتهون إليها؟ لقد بدأت المحاكمات وانتهت وليس يعلم أحد على وجه التحقيق وجه الحق!... رئيس المنظمة دي موليه الذي انطلق في الأيام الأولى للمحاكمات في دفاع عنيف بليغ ما لبث في اليوم الأخير أن انسحب دون أن يكمل دفاعه! وغرقت القضية في بحر من التناقضات والتزوير واللغط والدسائس... والثابت الوحيد هو أن المحارق في طول البلاد وعرضها قد التهمت الكثير من فرسان الهيكل. أرسلتهم إليها محاكم يرأسها كهنة المقاطعات... وفي سنة ١٣١٢ أعلن البابا حل المنظمة وعدم السماح لأحد بارتداء الثوب العسكري الخاص بها وتحويل أملاكها للأديرة....

المحاكمة الأخيرة كانت من نصيب دي موليه الذي حاول عبثاً أن يتكلم ويكشف كل شيء ولكن زبانية الملك انتزعوه بقوة من إمام المحكمة في جو من الصخب والفورة العامة استعملت فيه السيوف. وفي المساء كان الملك

فيليب الجميل أمام ساحة المحرقة يعطي الإشارة بالنار ... وارتفع اللهب ... يلتهم القضية كلها ! وأحرقت فرنسا بنفسها المحاربين الصليبيين العائدين إليها !

الغريب أن البابا لم يعش بعد ذلك سوى أسبوعين وأن الملك فيليب لحقه بعد ستة أشهر ... وطوت القضية كل أبطالها !

... وانتهت قصة فرسان الهيكل في التاريخ ....

فخر الدين الرازي

هو طبيب كبير وفيلسوف كبير وعالم كبير كانت تشتد إليه الرحال من الأقطار في كل معضل ... ومع ذلك أو ربما لذلك اصطدم بالرأي العام الديني للناس وعاش تارة منفياً وطوراً خائفاً حتى بعد الموت ...

اسمه أبو الفضل محمد بن عمر البكري ويلقب بالفخر الرازي ويعرف بابن الخطيب فأبوه كان خطيب الري . وقد درس هناك في طبرستان المطلة على بحر الخزر . قرأ ، حفظ ، تدبر ، تفكر ، في كل ما وقع له من الفقه والحديث والطب والفلسفة والكيمياء . وسافر إلى خراسان رغم فقره يطلب كتب ابن سينا والفارابي والبيروني ويأخذها عن شيوخها ...

في ذلك الحين كان الشرق الإسلامي كله في الشام ومصر والعراق مشغولاً بالصليبيين الذين كان مضى على وجودهم في الشام حين ولد الرازي أكثر من خمسين سنة . وقد عاش الرازي ليسمع عن معارك المسلمين معهم وعن حطين وعن تحرير القدس منهم ... وهو في أرضه البعيدة في أقصى خراسان يعتقد أن العلم أيضاً جزء من الجهاد . وأن المزيد من العلم والحكمة والعقل مزيد من إثبات حكمة الله ...

وقد أتقن تفسير القرآن فله تفسير على الوجه العقلي لا النقلي سماه بمفاتيح الغيب في اثني عشر مجلداً جمع فيه كل غريب وغريبة . وهو كبير جداً لكنه لم يكمل وشرح سورة الفاتحة في مجلد وله تفسير أسماء الله الحسنى سماه لوامع البينات . وأتقن في الوعظ باللسانين العربي والفارسي . وكان يلحقه الوجد

في حالة الوعظ ويكثر البكاء»، وأتقن الطب وله فيه الجامع الكبير الملكي شرح الكليات في قانون ابن سينا... لكنه أغرق في الكيمياء. تهوس فيها وأضاع في ذلك الكثير من العمر والكثير من المال. كان يبحث عما كان يسمى حجر الفلاسفة أو المادة التي تحول كل شيء إلى ذهب... ولم نظفر بطائل... وأغرق في الفلسفة فله فيها العديد العديد من الكتب حول الحكمة والهندسة وكان عالماً في علم الكلام تأليفاً وجدلاً... وفي النحو وفي الشعر... ولقد ذكروا له حوالي ستين كتاباً بعضها في عدة مجلدات موزعة بين علوم العقل والنقل والأدب، لكنه لم يخرج من الفلسفة والتأليف والوعظ والكلام بغير عداء الناس... كان عقله الذي يقوده وبالاً عليه أمام طغيان التقليد الديني السائد... لم يختلف ذلك عليه أيام فقره وأيام غناه... وإذا زاد غضب العلماء والناس عليه في أيام الفقر احتقاراً أو استهانة به فقد زاد في أيام الغنى حسداً وحقداً. واكتوى في الحالين.. وسمعوه في هراة، البلد الذي بلغ فيه الذروة من الغنى والمجد ينشد على المنبر عقب كلام عاتب فيه أهل البلد.

المرء ما دام حيـــــاً يستهان به ويعظم الرزاء فيه حين يفتقد!...

حين كان الرازي فقيراً، في أيامه الأولى خرج إلى خوارزم. وكان قد تمهر في مختلف العلوم والمعارف فجرى بينه وبين أهلها كلام. وجدل فيما يقول به من المذهب والاعتقاد فأخرج من البلد....

ورحل الرازي إلى ما وراء النهر يقصد بني مازة في بخارى فجرى له أيضاً هناك ما جرى في خوارزم. ولم يلق منهم خيراً... وبلغ من فقره أنه مرض في بعض المدارس المجهولة وشكا إقلاله إلى بعض التجار فاجتمع هذا التاجر إلى التجار المستقربين هناك وأخذ منهم شيئاً من زكاة أموالهم وتدبر الرازي أمره بذلك وخرج من بخارى عائداً إلى الري... حتى هنا لم يكن أحد يأبه به إلا

كعالم ذي آراء غريبة منكورة ... أما حين صادف الرازي في الري طبيباً ذا نعمة كبيرة وله ابنتان زوجهما الطبيب قبل موته من ابني الرازي استولى بذلك على ثروته فقد صار للرازي قاعدة مالية متينة تمكنه من الدفاع عن آرائه وفكره ... ومن الاكتواء في الوقت نفسه بعقابيل هذه الآراء وهذا الفكر ...

وقد زاد ماله وجاهه وزاد أعداؤه في وقت معاً دخل في بعض التجارات مع شهاب الدين الغزنوي عامل غزنة ونال منه الإكرام والمال الجزيل. واتصل أمره بالسلطان محمد بن تكش سلطان خوارزم (خوارزمشاه) ونال منه أسنى المراتب وأعظم الرزق، فكان يركب في موكب وحوله السيوف المجلوة وله المماليك الكثيرة ... والتلاميذ الكبار الذين يحوطون به في مجالسه ويزيدون على الثلاثمائة ... حينذاك كان قد دخل في مأزق أهل السياسة والمال بجانب مأزق العلم وكان عليه أن يتلقى ما يحمله هذا المأزق من ألسنة الناس وجهنم الناس وما يثيره حوله من الريب في العقيدة ...

وكانت جمهرة العلماء في خراسان وما وراء النهر على المذهب الكرامي، مذهب أبي عبد الله محمد بن كرام وهم الذين يثبتون صفات الله كما وردت في ظاهر آيات القرآن ويدعون إلى تجسيم المعبود ويزعمون أن له جسماً له حد ونهاية ويثبتون لله تعالى السمع والبصر أزلاً ويقولون إن له إرادة يريد بها وأنه تعالى عالم بعلم قادر بقدرة ... والمشكلة فكرية فلسفية وكان الرازي يقف على الطرف الآخر ويرفض هذه الآراء ... ويطعن على الكرامية ويبين خطلهم ولا يعتد عليهم بفكره فقط ولكن بجاهه العريض وماله الوفير ومكانته من السلاطين ... كان يتعاظم حتى على الملوك وكان الكرامية بالمقابل يطعنون به ويشوهون سمعته ويحقدون أقسى الحقد عليه ... كان بينهم وبينه السيف الأحمر فينال منهم وينالون منه سباً وتكفيراً ... واشتد أمره على الكرامية حتى صار قضية الناس.

واجتمع يوماً مع الزاهد الكرامي مجد الدين بن القدوة فاستطال الرازي عليه وشتمه وأهانه فلما كان من الغد جلس ابن عم مجد الدين فوعظ الناس وقال (ربنا امنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) أيها الناس: لا نقول إلا ما صح عن رسول الله ﷺ وأما قول أرسطو وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها فلأي شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله... وبكى وأبكى الناس وضجت الكرامية واختبط البلد كله وثاروا من كل ناحية وحميت الفتنة فأرسل السلطان الجند فسكنهم وأمر الرازي بالخروج من هراة... منفياً. كان ذلك سنة ٥٩٥ ومع أن الرازي عاد بعد ذلك إلى هراة إلا أنه لم ينس الكرامية ولم ينسوه وظل قضية قائمة فلما مات سنة ٦٠٦ / ١٢١٠ بعد مرض طال به قال الناس. إن الكرامية توصلوا إلى إطعامه السم...

ولقد أوصى قبل موته أن يدفن في جبل الغريب من هراة ورأى الناس جنازته تمشي إلى هناك. والحقيقة أنه دفن في داره كان يخشى أن يمثل عوام الكرامية بجثته لما يظنون به من سوء العقيدة!...

ظل خائفاً حتى بعد الموت!...

ابن رشـد

لعله ما من شخصية في التاريخ الإسلامي تركت أثرها العميق في الغرب وتغلغلت في صميم نسيجه الفكري عدة قرون كابن رشد. اسمه الغربي أفيروس كان عملة السوق المتداولة في الجامعات الغربية وفي أوساط المثقفين منذ القرن الثاني عشر الذي عاش فيه حتى القرن السابع عشر. يتزينون بهذا الاسم كما يتزين مثقفونا اليوم بأسماء هيجل وكانت وأنشتاين... صارت الرشدية لديهم مذهباً فكرية ومدرسة...

وابن رشد ليس فرداً نبغ في الأسرة الرشدية ولكنه سلسلة متصلة من عدة رجال كلهم من الفقهاء والقضاة النابهين لكن واسطة العقد فيهم هو الحفيد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الذي ولد سنة ٥٢٦ وتوفي سنة ٥٩٥ والأسرة قرطبية، وقرطبة لعهدهم كانت إحدى عواصم الدنيا علماً وعمراناً ودلال قصور ومهرجان حياة. وفي هذه البيئة نشأ أبو الوليد ابن رشد ويبدو أنه درس الطب أول ما درس بعد علوم الشرع لأن أول كتاب كتبه في الفترة الأولى من حياته كان كتاب الكليات الذي عرف في أوروبا، في العصور الوسطى، والذي كان ثمرة اتصال ابن رشد بأبناء زهر الأطباء المشهورين.

عن طريق الطب دخل إلى الفلسفة وأعجب بأرسطو حتى إذا حرضه صديقه الوزير ابن طفيل على شرح كتبه لتكون أسهل منالاً للسلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف تولى ذلك طائعاً بعد أن قدمه الوزير نفسه إلى السلطان وأثنى عليه. ونال من الحظوة عند السلطان فوق ما كان يرجو...

وكان سلاطين الموحدين في تلك الفترة يمدون ظلهم على معظم المغرب الكبير وجنوبي الأندلس ....

ورحل ابن رشد أكثر من مرة إلى المغرب في مهمات مختلفة لكن مقره كان في الأندلس حيث عين قاضياً في إشبيلية ثم في قرطبة سنين طويلة واستدعاه السلطان ليكون طبيبه الخاص لكنه حين رأى انصرافه للعلم والفكر أعاده إلى قضاء قرطبة ...

حتى هنا لم يكن في حياة ابن رشد قضية ولا مشكلة ... السلطان أبو يعقوب نفسه كان يحب الفلسفة فلم يكن أحد ليجرؤ على الدس لديه على الفلاسفة وبخاصة على ابن رشد وحين توفي السلطان سنة ٥٨١ / ١١٨٤ وتولى ابنه يعقوب المنصور لم تختلف مكانة الفيلسوف لدى الابن. ظل الأثير المحترم وظل أبو يوسف يخالطه مخالطة الأخ ويحاوره ويعرف الكثير عن كتبه ومن رأيه، وظل نجمه في ارتفاع في الناس حتى لقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو !

القضية بدأت سنة ٥٩١ / ١١٩٥ بتحول العلاقة بين أبي يوسف وأبي رشد إلى النفرة والجفاء، أكان ذلك عن نفور شخصي محض؟ أم كان نتيجة الحمية الدينية التي تفجرت في صدر السلطان بعد نصره العظيم على الاسبان في معركته الأرك؟ أم كان نتيجة الأحقاد الحاسدة التي تدب عمياء كعقارب الليل؟ ومنها ما ذكروا من أن ابن رشد تكلم في بعض كتبه عن الزرافة فقال: رأيتها لدى ملك البربر يقصد السلطان فاستغلوا الخط المغربي وقرؤوها للسلطان لدى ملك البربر ... ووخز ذلك صدره لما يدل عليه من استخفاف الأندلسي بالبربر بما وراء البحر ... وقد يكون ذلك كله معاً هو الذي أفقد ابن رشد حماية السلطان وفتح عليه باب الفقهاء والعلماء الكارهين للفلسفة والفلاسفة. ولم يكن هؤلاء قلة ولا تياراً في الفكر هيناً. كانوا يعتبرون أنفسهم حماة العقيدة ويعتبرون الفلسفة طريق الزندقة ... وابن رشد في المكانة التي وصلها كان تياراً

مضاداً خطراً يجب إيقافه قبل أن يجرف بتبحره في علوم الأوائل بعض النفوس المطمئنة ولعلهم أنكروا عليه مبالغته في تقدير أرسطو . المعلم الأول ، حتى عنه ليعطيه دون البشر جميعاً المكان الأول ، ويقول : ابن برهان أرسطو هو الجهد المبين وأن العناية الإلهية أرسلته إلينا لتعليمنا ما يمكن عمله « هذا إلى استصغاره شأن علم الكلام الإسلامي وتسويته بين الشريعة والفلسفة في القيمة ... ولو انتشرت هذه الأفكار لكانت خطراً على العقيدة ! ... واجتمع نفر من الفقهاء والعلماء إلى السلطان ووجهوا إلى ابن رشد تهمة الكفر بعد أن سمعوا أنه قال تعليقاً على ما شاع لدى العامة في تلك الفترة من حصول رياح شديدة تهلك الحرث والنسل كالرياح التي أرسلت على قوم عاد . فقد نقل عنه قوله : والله وجود قوم عاد ما كان حقاً فكيف سبب هلاكهم ؟ فهاج العوام والناس وقالوا : إنه ينكر القرآن وإنه كفر ...

ومع أن أحداً لا يعلم موقف السلطان الحقيقي في هذه القضية : هل أوحى بها أم تقبلها طائعاً ؟ أم تقبلها مرغماً ؟ إلا أنه على أي حال أمر بمحاكمة ابن رشد في مجلس من القضاة والفقهاء في قرطبة .

واجتمعوا له في المسجد الجامع يستجوبونه لم يتكلموا في الفلسفة والفكر ولكن أمسكوه في بعض النتائج التي انتهى إليها أو قال بها واعتبروه خارجاً عن السنن الإسلامي في ثلاثة أمور :

— في قوله بقدم العالم ونظام العقول المجردة عن المادة والتي يصدر بعضها عن بعض ويؤثر فيه . وهو ما لا يقول به الإسلام .
— في رفضه المعجزات وقوله بارتباط الأسباب بالمسببات على وجه لا يسمح بها !
— في قوله ببقاء الكليات وحدها وفناء الجزئيات . فالفرد يفني وإنما الخلود للنفس الإنسانية الكلية ، فما القول إذن في يوم الحشر ؟

وشهد ابن رشد المحاكمة الكبرى وكانت أقواله صريحة صادقة. لم يتزلف للسلطان ولا تراجع أمام الفقهاء مقتنعاً بقوله وعلى الرغم من دفاع أبي عبد الله ابراهيم الأصولي عنه فقد قرروا أنه مرق من الدين واستوجب ما يلقي الله من الضالين. ورفعوا أمره إلى السلطان الذي لم يأمر بقتله واكتفى بتجريده من منصبه في القضاء ونفيه إلى قرية قريبة من قرطبة اسمها اليسانة معظم سكانها من اليهود! ... ونشر في الناس منشور يقول: «قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام فخلدوا في العالم صحفاً مالها من خلاق مسودة المعاني والأوراق. بعدها من الشريعة بعد المشرقين ... يؤمنون بأن العقل ميزانها ... وهم يتشيعون في القضية مزقاً.. يخادعون الله والذين آمنوا وما خدعوا إلا أنفسهم وما يشعرون فكانوا عليها أصر من أهل الكتاب. فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم في الأبدان ...».

وانفض عن ابن رشد تلاميذه والمريدون. ونبذ وحيداً وكان يشرف على السبعين وقد روى أنه قال: «أعظم ما طرأ علي في النكبة أني دخلت أنا وولدي عبد الله مسجداً بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فثار علينا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه ...».

وقد توسط بعض من سروات إشبيلية عند أبي يعقوب فعفا عن ابن رشد بعد سنوات واستقدمه سنة ٥٩٥ إلى مراكش. لكن الأجل لم يطل به ومات تلك السنة. وقد شهد محي الدين ابن العربي، الصوفي المشهور نقل جثمانه إلى قرطبة وقال: «لما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تآليفه تعادله من الجانب الآخر. وأنا واقف ومعي ابن جبير وابن سراج الذي التفت فقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله؟ يا ليت شعري هل أتت آماله؟

ابن تيمية

كالنجم المتفرد المتقد يظل أحمد ابن تيمية بين فقهاء الإسلام الأولين. ومع أنه مضى على وفاته ما يقارب ستمائة وثمان وثمانين سنة إلا أن حضوره الفكري لم ينقطع، والحديث عنه ما يزال يتصل، ولعله سيظل يتصل... فالرجل أمة وحده في العلم وفي الاجتهاد في العلم وفي مجابهة الظلم وفي قول الحق وفي حرية الفكر ولو كان الثمن حفرة في سجن!...

وقد نظلمه لو قلنا أنه كان خلاصة أسرة واسعة من العلماء الحنابلة فأبوه شهاب الدين عبد الحليم وجده عبد السلام وأبو جده عبد الله وأخواه وأخته وابنه وحفيده وابن الحفيد وأعمامه وأبناء الأعمام كلهم من العلماء... إن أحمد ابن تيمية تجاوز هذه الأسرة في مواهبه وتفرد... ومن هنا كانت غربته ومن هنا كانت قضيته... أو قضاياه فلم تكن له قضية واحدة ولكنه كان سلسلة من القضايا ما تنقضي إحداها تأتي الأخرى وصار مشكلة الحكام والفقهاء والناس سنين طويلة...

نشأته لم تكن تختلف عن الآخرين في شيء ولد في حران سنة ٦٦١ / ١٢٦٣ بعد سقوط بغداد في أيدي المغول خمس سنوات، ونزح به أبوه وعمره ست سنوات إلى دمشق. لأن دمشق صارت أحد مركزي العلم والسياسة في الإسلام بعد بغداد ولأن مدينة علم قد نشأت بجوارها وصارت مركز الحنابلة. هي الصالحية. ونشأ أحمد بن تيمية في هذا المركز وأوتي من قوة الذاكرة وحضور الذهن وقوة الحجة عجباً من العجب... حتى أضحى وهو

في مطلع الشباب عليماً في التفسير وعلوم الحديث والجرح والتعديل وأصول الفقه ... يلتهم الدروس والكتب التهاماً ويؤلف ثم يؤلف حتى ليقدرون ما ألفه في حياته بخمسمائة مجلد! وهذا يسلكه بين كبار الكبار من المؤلفين وسرعان ما صار يدعي بشيخ الإسلام، وفريد العصر، وعظيم المجتهدين، ولعل هذا التميز مع ما يأتي به من الحسد كان النواة التي بدأت معها قضية ابن تيمية مع زملائه الفقهاء وأنصارهم من الحكام ...

على أنه كان العلم الواسع والتدين الشديد يتمتع بميزتين لعلهما تنبعان من هذا العلم وهذا التدين ومن مسؤولية عملهما.

الأولى: أنه يفهم الإيمان على أنه قول وعمل. فليس ثمة مسافة بين قول يقوله وعمل يعمله ومن هنا كان أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودفاعه عن المظلومين وجهاده ضد المغول.

والثانية: أنه كان يشده الناس بجرأته ويتحمل نتائج هذه الجرأة في لحظات ترتعد فيها فرائص الآخرين وترتجف العظام! ومن هنا كانت مواقفه المعروفة لدى الملوك وضد الشيوخ والعلماء، ودفاعه عن حرية فكره في الاجتهاد! ...

ويذكرون له في البابين مقابلته العنيفة للملك غازان المغولي على أبواب دمشق في حين كان الناس يحملون من الرعب ما خف من المتاع والمال ويهربون ثم يذكرون تحريضه الناس على قتال المغول وسفارته إلى مصر يقول للسلطان المملوكي هناك قوله تعالى: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً﴾، ويفسر ذلك قائلاً إن تخليتم عن الشام فإن الله يقيم له من ينصره ويستبدل بكم غيركم. ويذكرون له مشاركته في القتال في موقعة شقحب التي هزم فيها المغول شر هزيمة وردوا نهائياً بعد قليل عن الشام. ويذكرون له أنه

خرج أكثر من مرة متطوعاً مع الخارجين إلى جبل لبنان وغيره لتأديب الممالئين للتتر وإرغامهم على التوبة .

مقابل هذا يروون أنه دار سنة ٦٩٩ على الخانات وباعة الخمر فكسر أواني الخمور وغرر بنفسه جماعة من أهل الفواحش فيها وأنه أتى بشيخ يدعي الصوفية فأمر بحلق شعره الطويل جداً وقص أظافره واستتابه من أكل الحشيشة ! وأنه سمع برجل أخذ الأمير قطلوبغا أمواله غصباً فدخل إليه وقال قطلو مستهزئاً كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عالم زاهد فقال : موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ! ...

مثل هذا الرجل كان من الطبيعي أن يكثر خصومه : من الفقهاء والقضاة من المتصوفة ومن الأمراء والحكام على السواء وكان هؤلاء نجوم المجتمع وسادته في ذلك العهد المملوكي وتحركت مختلف قواهم ضده وصار شغلهم الشاغل وتلاحقت عليه التهم في سنة ٧٠٥ التي يمكن أن ندعوها بسنة المحن كانت منها أربع متوالية تدل على مبلغ الضيق منه .

الفقهاء اتهموه أولاً بالتجسيم في رسالة أملاها تعرف بالحموية ونادوا في البلد بالتشنيع عليه ولكن أحد الأمراء أسكت الفتنة في مهدها ... ثم اتهموه في السنة نفسها في معتقده . وجمع نائب السلطان القضاة والعلماء في القصر وحضر الشيخ وسألوه فجاوبهم برسالة كان كتبها تعرف بالواسطة فسقط الاتهام لأنه أثبت أنه على عقيدة السلف وجاءت في السنة نفسها طائفة الأحمدية الصوفية إلى نائب السلطنة تطلب كف لسانه عنها فألزمها عدم الخروج عن السنة ووصلت الدسائس عليه إلى السلطان بمصر فكتب بأن يحمل إلى القاهرة . وودعه الناس على خوف وترقب وعقد له هناك غداة وصوله مجلس في القلعة حضره القضاة وأكابر الدولة يحققون معه . ونصب شمس الدين بن عوفان مدعياً وبين أعضاء الحكم بيبرس الجاشنكر ونصر المنيحي وابن

مخلوف قاضي المالكية ... وعادوا به إلى قضية التجسيم فهل يعتقد أن الله استوى على العرش حقاً وأنه يشار إليه بإشارة الحسية وأنه يتكلم بحرف وصوت ؟ وطال الجدل وحبس الشيخ في برج أياماً ثم نقل إلى سجن الجب . وأرسل السلطان كتاباً يقرأ على الناس في أسواق الشام بالطعن عليه وبالرجوع عن عقيدته تحت طائلة الحبس ... وكانت محنة للحنابلة في دمشق ، أخذت فيها خطوطهم بالتبرؤ منه .

مكث ابن تيمية سنة وبعض السنة في السجن ثم أخرج منه بشفاعة بعض الأمراء ... لكنه ما لبث أن أعيد إليه لأن بعض الصوفية شهدوا أنه يحمل على ابن العربي ... وألزموه أن يختار بين الحبس وبين الإقامة بشروط في دمشق أو الاسكندرية ... فاختار الحبس وبقي فيه بين القاهرة والاسكندرية قرابة ثلاث سنوات حتى تولى الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطة فاستدعاه وتلقاه في مجلس حافل وأطلق سراحه ... لكنه بقي في القاهرة ثلاث سنوات قبل أن يعود إلى جحيم الخصوم في دمشق ...

وفجأة سنة ٧١٨ تجددت الحملة ضده في فتواه بأن الحلف بالطلاق بدل الحلف بالله لا يوجب الطلاق ولكن كفارة اليمين وصدر مرسوم سلطاني بمنعه من الفتوى وعقد لذلك مجلس ونودي به في البلد ! وحبس في القلعة بدمشق خمسة أشهر ونصف الشهر ... ولكنه عاد يفتي لأنه كما قال لا يسعه كتمان العلم فعقد له مجلس ثالث ومنع من كل فتوى ... لكنه مع ذلك أفتى بأن شد الرحال إلى أضرحة الأولياء بدعة ...

وقامت قيامة العلماء والفقهاء وصدر مرسوم سنة ٧٢٦ باعتقاله ...

سجن في القلعة بدمشق ، ولكنه ظل يستقبل تلاميذه ويرد على مخالطيه فرسم السلطان بمنع الكتب وأدوات الكتابة عنه وحبس في بئر ... وفوجىء الناس بموته في البئر ! ودفن في مقابر الصوفية (وهي ضمن جامعة دمشق اليوم) .

جنازته التي خرجت ضحى لم تصل القبر إلا عصراً لتزاحم الناس وكثرة المصلين بعشرات الألوف والمسافة لا تزيد على كيلومترين ... وحسب خصومه أنه انتهى وبقوا ولكن أسماءهم هي التي ضاعت مع الأيام، وبقي فكره وحده !!

لسان الدين ابن الخطيب

يقولون عنه أنه ذو الوزارتين ، وذو العمرين وذو الميتتين وذو القبرين !

ذلكم هو لسان الدين ابن الخطيب ، الرجل الذي كانت حياته تتردد بين العز الواسع فهي : جنة نعيم وبين المأساة المدمرة فهي الجحيم المجنون ... إلى أن هوى كالفراشة المحترقة على النور .

افتح إن شئت كتب التراجم والرجال ، وانته منها إلى سنة ٧٧٦ واقرأ وفيات هذه السنة يستوقفك برغمك هذا الاسم محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي المعروف بلسان الدين ابن الخطيب ... وتقرأ بعد ذلك عجباً من الأمر .

تقرأ أنه الوزير الشهير الكبير الطائر الصيت في المشرق والمغرب . وأنه المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها . وأنه إلى هذا وذاك كان لأصدقائه وأعدائه على السواء قضية ومشكلة ! أهو الحسد لشخصيته التي لم يفتر شغف الناس بها ؟ أم هي الزندقة أودت به في عصر متزمت ؟ أم أن القرب من السلطان كركوب الأسد ليس يأمن صاحبه أبداً ؟ أم هي المنافسة في الصناعة وليس في الصناعة سوى السياسة والشعر ؟ وقد خسر ابن الخطيب الشوط فسقط ؟ لست تدري !

كانت خلاصة الأندلس قد اجتمعت كلها في غرناطة يوم ولد لسان الدين سنة ١٢١٣/٧١٣ كانت هذه الامارة تلخص كل تلك الدنيا الملونة وترسل آخر أنوارها وقد شغف الرجل بكل المعارف . أخذ عليه النهم للمعرفة

كل نفسه فهو للشعر والعلوم الطبية وللأدب وللفلسفة وعلوم الدين والحساب ، وللسياسة أيضاً وصنعة الندمان . أعانته على ذلك النعمة الطائلة التي يتقلب بها أهله والمكانة من الدولة . وصار كاتباً لدى أبي الحاج ويوسف ابن الأحمر صاحب غرناطة . فلما مات وزيره ابن الجياب بالطاعون صار لسان الدين هو الوزير ، وهو السفير إلى الملوك وهو النائب عن السلطان في كل أمر ... واستمر على ذلك في عهد ابنه محمد . فلما حدث انقلاب خلع فيه محمد ونصب بدله أخوه اسماعيل وهرب محمد منذ سمع ضرب الطبل بذلك فوجىء لسان الدين بالنكبة . فقد سجن رغم الأمان ، واستؤصلت نعمته ولم يكن في الأندلس مثلها كما يقولون « في تفجر الغلة وفراغة الأعيان وغبطة العقار وحصانة الآلات ورفعة البنيان واستجادة العدة ووفور الكتب إلى الأبنية والفرس والطيب والمضارب والسائمة » . وبيع جميع ذلك وصاحبها البخس ونقصها الخوف ولم تقتصر النكبة عليه وحده ولكن شمل الطلب جميع الأقارب من خواه !

استمر لسان الدين في الظلمة فترة قبل أن يتوسط السلطان المغربي أبو سالم بن عبادة المريني بفاس ، له ولسلطانه بالشفاعة فانتقل مع السلطان المخلوع إلى المغرب ... مكرماً حيث حل وشفع له السلطان كرة أخرى فردت عليه ضياعه وثروته ثم عاد سلطانه إلى الحكم فعاد إليه بأهله وقلده السلطان ما وراء بابه ! ... وعادت الأيام ! .. لكن في هذه المرة كانت النكبة السابقة قد علمت لسان الدين الكثير فهو مقتصر على الكفاية في الطعام واللباس ، هاجر للزخرف ، حريص كل الحرص في التدبير قد عمر زاوية للمرابطين ومدرسة للتعليم ... وصلحت أمور الدولة على يده . لكنه لم يسلم من السعاة والمشكلات وبخاصة حين اصطدم بعثمان بن يحيى شيخ الغزاة . وشيخ الغزاة منصب خطر يعدل القيادة العليا للجيش وحين استطاع نفي عثمان خارج الإمارة بعد نكبته مع أبيه وإخوته حينذاك صار مضغة في الأفواه وقضية في

الدولة ! ... لأن الجو خلا له وغلب على هوى السلطان وخلط بينه بين ماله. وغشي إلى بابه الخاصة والكافة وانفرد بالحل والعقد ... » .

غير أن لسان الدين أدرك أنه يقف على الرمال. وأن السعايات تحفر الأرض سراديب تحته. كل أصحاب المصالح التي تضررت يتكالبون عليه وينوشونه قدحاً واتهاماً. وشعر أن السلطان بدأ يعطي أذنه لهم. وأنهم قد أحفظوه عليه فأجمع على الهرب إلى سلطان المغرب واستأذن في تفقد الثغور واصطحب معه ابنه وركب عند جبل الفتح، جبل طارق، فجاز العدوة إلى سبته على أسطول أعده له السلطان المريتي وقدم عليه في تلمسان فاهتزت له الدولة وأركب السلطان له خاصة لتلقيه، وأخرج كاتبه سفيراً إلى صاحب الأندلس يطلب له أهله وولده وثروته فجاء بهم وبها على الحال الأكمل ...

وشعرت غرناطة، من أميرها حتى آخر الباعة في الأسواق، أن لسان الدين قد مكر بها وخذلها ورجحت كفة الساعين فيه وانتشرت التهم تأكله بالحق وبالباطل لكنهم كانوا لا يستطيعون معه شيئاً في السياسة والمصالح ... فوجدوا المنفذ إليه في الدين. وشاعت على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة للزندقة أحصوها عليه. ورفعت في غرناطة، إلى قاضي الحضرة أبي الحسن النباهي فاسترعاها وعقد له محاكمة غيابية وحكم عليه بالزندقة والموت ! وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه فأقر الحكم. وبعث القاضي إلى السلطان المريني في الانتقام منه بتلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه !

وقال المريني : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ أما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري ... » .

ووفر الجراية والإقطاع له ولبيته ولمن جاء من أهل الأندلس في حماه ! لكن هذا البذخ نفسه جعله مرة أخرى قضية أخرى في المغرب فما أن توفي حاميه السلطان حتى ألمت به عداوة الوزير الجديد سليمان بن داوود الذي جاء بعد ذلك طامعاً في ضياعه وبساتينه حاسداً لمواهبه ولتأنقه في الملبس

والبذخ وقبض عليه وأحيل مرة أخرى إلى المحاكمة واتهم لدى القاضي بأمور لا يرضاها الدين في كتبه وحكم القاضي عليه مرة أخرى بالموت ... لكن السلطان المريني الذي كان يرجو الاستفادة منه في العلاقات مع غرناطة حماه من الإعدام ! ... ونجا لسان الدين ولكن إلى حين . وذلك أن انقلاباً جرى في سلطنة المغرب أوصل أعداء ابن الخطيب إلى الحكم بالاتفاق مع بني الأحمر ...

وصدر أمر السلطان بالقبض على ابن الخطيب وإذا شارك في إغراقه هذه المرة عدوه القديم أبو الحسن النباهي فقد شارك في ذلك تلميذه ابن زمرك الشاعر الذي انتدب للذهاب إلى فاس خاصة للعمل على الإجهاز عليه ....

حمل من السجن إلى مجلس عام قضاته عليهم طيلسان القضاء ولكنهم من الموظفين يصدعون بما يؤمرون وتولى الدعوى ابن زمرك وواجهه بتهمة الزندقة في كلمات وقعت له في كتابه المحبة . واتهمه القضاة في دينه بشراسة وشهد عليه الشهود . وكان معظم التركيز على زندقته وأهانوه أمام الملأ قبل أن يعيدوه إلى السجن وتشاوروا في قتله وأفتى بذلك بعض الفقهاء وخشي الوزير أن ينجو ابن الخطيب فأمر غلمانه بخنقه في السجن ليلاً وأخرج في الصباح فدفن ثم وجد طريحاً خارج القبر في اليوم التالي وقد جمعت له أعواد أضرمت ناراً وأحرقت شعره فأعيد إلى حفرته ... فهاتان هما الميتتان والقبران . وأما العمران فالرجل كان مبتلي بالأرق لا ينام من الليل إلا أقل من اليسير فله عمر الليل والنهار وبهذا استطاع أن يؤلف سبعة وثلاثين كتاباً ... ضاع معظمها يوم ضاع ... فقد أحرقت في الساحة العامة يوم أحرق ! وذكروا أنه قال في محنته الأخيرة :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وكنا عِظاماً فصرنا عِظاماً	وكنا نقوت فها نحن قوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	وفات ومن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم به	فقل يفرح اليوم من لا يموت !!

غاليله

تتقلص أعصابك كما تتقلص أعصابي إشفاقاً ورعباً لو سمعت بأن ضحية من الضحايا ذهبت في الحريق. أنها ميتة وحشية، والنار عذاب أعد في الآخرة للكافرين. ومع ذلك فقبل ثلاثمائة سنة فقط كان عدد من القضايا الكبرى ينتهي بهذا الحكم :

ـــ الإحراق حياً.

بل كانت المحاكم ذات الصبغة الدينية في أوروبا هي التي تأمر بالمحرقة وتوقدها ناراً ودخاناً وطقوساً إذا اعتبروا أن « الشيطان » هو الذي يسكن أجساد المجرمين كالمتعاملين بالسحر الأسود، والهراطقة الملحدين، وأصحاب دعاوي الغيب فلا مناص من صدور الحكم على هذه الأجساد التي يسكنها الشيطان بالحرق، لا خلاص لها إلا بالمحرقة التي كان إيقادها مألوفاً ومن حولها أصحاب القلانس الحمراء بالسموح المزركشة يرتلون التراتيل !

هذا المصير صار أحياناً يضرب بعض العلماء في أوروبا منذ ظهر أن بعض أفكارهم « الشيطانية »، تصطدم مع الكتاب المقدس. خرق جدار هذا الكتاب عمل من أعمال الشيطان. والإحراق هو الوسيلة لتطهير الجسد ! ... من الأفكار التي كانت خرقاً في الدين قبل ثلاثة قرون ونيف : القول بكروية الأرض، القول بأنها ليست مركز الكون، بأنها تدور وأن الكواكب تدور ... الكنيسة كانت قد أقامت أفكارها وفلسفتها وتفاسيرها للكون على أفكار أرسطو وبطليموس القديمة المستقرة، فلما بدأت التجربة والمشاهدة والحساب

تثبت العكس نسبوا ذلك إلى زيغ الشيطان ونصبت الكنيسة من نفسها حارساً رهيباً للأفكار القديمة ... رهيباً ما دام الأمر بالمحرقة بعض وسائلها ! وفي سنة ١٦٠٠ سجلت الكنيسة نصرها على الفكر العلمي الحديث بإحراق العالم جيوردانو ترونو الذي ظل يصر على أن الأرض ليست مركز الكون! كان مصيره أمثولة ما انفكت ترتسم في جباة العلماء سنين طويلة ...

لعلنا بهذا الشكل نفهم مدى اضطراب العالم الكبير غاليله الذي استدعى أواخر سنة ١٦٣٢ إلى روما للمثول أمام المحكمة الكنسية العليا ... إنه قال في كتابه الذي طبعه تلك السنة : حوار حول نظامي العالم الرئيسيين أكثر بكثير مما قال جيورنادو المحروق ...

الواقع أن العالم الغربي كله كان في تلك الفترة بين أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر على المفترق يتمزق ، يعاني أزمة حادة ، يحار بين ما يرى ويشهد وما تريد الكنيسة له أن يعتقد ، أزمة اقتصادية من التكاثر السكاني وحركة الأسعار ونمو الرأسمالية ، وأزمة اجتماعية من انهيار النفوذ الإقطاعي وظهور البورجوازية ، وخصومات الفلاحين مع الإقطاع ، والعمال مع أرباب العمل ، وأزمة دينية بين الكاثوليكية المحافظة والبروتستانية الثورية والأفكار الملحدة ، وأزمة في الحس الفني والأخلاقي والأدبي ... ونصبت الكنيسة من نفسها حارساً للنظام القديم كله . تريد أن ترد الخراف الضالة جميعاً إلى الحظيرة الأولى ولو بالمحرقة ! ... تريد أن يقف العالم عند شفتي البابا ! ...

ومع أن التغيرات كانت تبده الناس وبخاصة في العلم وتفرض نفسها . فقد كان العلماء يعرفون أنهم يلعبون بالنار وهم يعانون الأفكار الجديدة وبخاصة في الفلك ...

وكانت هذه هي مشكلة غاليله أستاذ الرياضيات والعمارة والميكانيك والفلك في جامعة بادوفا . لقد صنع منظاراً فلكياً سمح له أن يرى ما لم يره أحد

قبله في قبة الفلك . رأى مجرة جديدة وكواكب لم يذكرها أحد ، ورأى كلفاً في وجه الشمس ... كان هذا كله هرطقة ولكن غاليله أعلنه وأثبته وانتقل إلى فلورنسا ثم روما وحظي هناك بصداقة الكاردينال بربريني الذي سوف يصبح عن قريب بابا روما باسم أوربان الثامن ! وهو الذي نصحه بالامتناع عن تدريس هذه النظريات الفلكية الجديدة لأن معناها إلغاء مقاطع عديدة من الكتاب المقدس !

وقبل غاليله نصيحة صديقه ... وحين أراد بعد سنوات نشر كتابه العتيد ذهب إلى صديقه الذي أضحى هو البابا فأستأذنه وحسب أن هذا يحميه ... لكن ما إن نشر الكتاب في هولندا سنة ١٩٣٢ حتى وجد غاليله نفسه قد وقع في المحظور وفي قبضة الكنيسة التي لا ترحم . إن نهاية الدرب عندها أمران أحلاهما مر الاعتراف بالخطأ أو المحرقة ! ومن ذا الذي يطيقهما ؟

كان غاليله على مشارف السبعين وحاول التملص من المحاكمة : ادعى أن صحته لا تسمح له بالسفر إلى روما ثم ادعى أن وباء الطاعون في أواسط إيطاليا منتشر . لكنه العذرين رفضا وانساق كالطريدة إلى قفص الاتهام . أول ما سألوه كان عن السبب في عدم الوفاء بوعده المقطوع للبابا بعدم تدريس نظريات الفلك الجديدة ... ومادت الأرض تحت قدمي غاليله . رأى شبح المحرقة ينتصب وأطال في الجواب ليقول إنه وإنه ... وقطع عليه رئيس المحكمة الطريق :

ــ الاتفاق يا سيد غاليله بينك وبين الكاردينال باليرمان ! لقد جرى أمام شهود ...

فقال : بلى قد يكون قال : عدم تدريس شيء من هذه الفرضيات بأي شكل من الأشكال وأذكر أني وافقت ...

ــ إذن فكيف حصلت على الأذن بطبع الكتاب ؟

الواقع أنه استخدم كل سمعته العلمية لدي البابا واستحيا جمع الرقباء لتمرير الكتاب قبل طبعه . ولم ينل إذن البابا إلا بعد أن جدد على مسمعه التزامه القديم معه ...

وطالت الجلسات ، يحشرونه في الزوايا الخطرة ويروغ ثم يروغ حتى أحسوا كأنه يمكر بذكائهم ويحتقر هذا الذكاء ! قال : لم أدحض النظريات الجديدة بشكل كاف . وقال كنت منذ زمن طويل ادرس نظريتي بطليموس وكوبرنيك دون اتخاذ موقف خاص من أي منهما . حين سئل :

ـــ منذ متى تعتقد أن الشمس هي المركز وأن الأرض تدور وتدور حولها ؟

أسقط في يده وأجاب أنا هنا لأطيع ! وأؤكد أني لم أدافع عن النظرية التي منعت في الأخذ بها أو من تدريسها ! وتخلو المحكمة للمداولة ثم تعلن :

إن نظرية دوران الأرض بعيدة منطقياً وخطأ فلسفياً وهرطقة دينياً والقول بها يؤدي إلى مصير جيوردانو برونو ... ونحن نعلن براءة غاليله إذا تبرأ منها ...

وأسرع غاليله يقول : بقلب مخلص وإيمان عميق ألعن وأحتقر تلك النظرية وكل هرطقة وأقسم أني ... لن ... وأني لن ...

لم تكن المحكمة هي التي يراها غاليله في هذه اللحظات ولكن شبح المحرقة ! ...

ويقولون أنه ضرب الأرض وهو خارج من المحكمة قائلاً : ولكنها تدور ... ولكنها من أساطير الناس ، لو فعل لأخذته المحرقة ! ...

سقراط

الذين يدرسون الفلسفة يصطدمون باسم سقراط أول ما يصطدمون وهم يدرسون أبجديتها الأولى . هذا الرجل الذي عاش قبل خمسة وعشرين قرناً يعتبرونه أبا التفكير الإنساني . وأول الفلاسفة . ولعلهم وهم ينسبون إليه ابتكار اسم الفلسفة يندفعون فيجعلونه هو الذي أوجدها . فكأنما لا فكر ولا فلسفة قبله ... وهو شرف ليس ببالغه ولا هو بمدعيه على أي حال فذلك أقدم منه بكثير . ولكنه يدل على أن سقراط كان شيئاً في تاريخ الفكر والفلسفة ... وشيئاً كبيراً !

ومع أن كل الكتب وبخاصة الغربية تبدأ ذكر الفلسفة باسمه فهو فيها فاتحة الكتاب . ومع ذلك فلو صادفت في الشارع هذا السقراط أو شبيهاً به لابتعدت عنه ميلاً أو على الأقل لزويت وجهك أو لناولته بعض الصدقة في أحسن الأحوال : شيخ حافي القدمين صيفاً شتاءً ... قصير القامة في إزار صوفي لا أزرار له تميزه لحية شعثاء حول وجه منفوخ ينخفض فيه أنفه الأفطس في حين تبص منه العينان جاحظتين كعيني الضفدع الهرم ... ولكن هذا المنظر الخارجي كان يتناقض مع منطق الرجل السديد وعقله الراجح وبيانه العذب الذي كان يجعله لا يسير في شوارع بلده أثينا إلا محاطاً بهالة من الشباب تتزاحم من حوله وتنهمك في الحوار معه ... صار اسمه بينهم : المعلم ! ولو أن زوجته ظلت الزاعقة المشاكسة على الدوام . صار فتنة الشباب ... ومن هنا كانت مشكلته الكبرى ... اتهموه بالكفر بالآلهة ، وبإفساد فكر الشباب

ولم يكن الاتهام دون أساس ...

فسقراط أثيني، إغريقي، ومع أن الكثيرين يعزون طريقته في الصياغة الفلسفية إلى ما ورثه عن أمه القابلة وأبيه النحات، إلا أنه في الواقع كان ابن تلك الموجة الفكرية التي سيطرت على أثينا وبعض مدن الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد وشاعت فيها «السفسطة» لا بالمعنى المرذول للكلمة من الشقشقة والجدل الفارغ ولكن بمعناها الأصلي من الحكمة. كانت أثينا قد خسرت أمام أسبارطة حرباً دامت سبعاً وعشرين سنة وعانت طويلاً من نظام الثلاثية المستبدة الذي فرضته عليها فلم تتخلص منه إلا بشق الأنفس. وكنت فيها الأحقاد والدسائس والثرثرة ... وانحرف الفكر مع السفسطة إلى الجانب النفعي لا يأبهون لغيره! وقد تناول السفسطائيون جميع نواحي المعرفة وقالوا إن الإنسان مقياس كل شيء. واحتقروا التقاليد كل الاحتقار آخذين بالنقد وبمذهب الذاتية واستحالة أي معرفة موضوعية. سقراط من هؤلاء ولكنه افترق عنهم في الأساس: كانوا يعلمون الشباب بالأجر الباهظ لكي يصلوا إلى النجاح. وكان يعلمهم بالمجان ويرفض بيع فكره لأن الفلسفة عنده ممارسة ونمط حياة وكان يستوقف حتى المارة في الشارع يجادلهم ليفقههم في أمور الحياة ومنازع الوجود ليصلوا إلى الحقيقة. وكان السفسطائيون يوحون إلى تلاميذهم بأنهم يعرفون كل شيء وبإمكانهم استخراجه بالحوار والجدل ويوحي سقراط إلى تلاميذه بأنهم يجهلون كل شيء. وكان السفسطائيون في اتجاههم النفعي يعتبرون مثلهم الأعلى «تحويل أقوى حجة إلى أضعف حجة» فلاحق مطلق ولا عدل مطلق ويعتبر سقراط هذا إساءة للحق، ويقول: اعرف نفسك بنفسك ... حتى قالوا إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ... وما كان لهذا كله أن يثير جمهرة الناس والسفسطائيين بخاصة ضد سقراط لولا طريقة

السخر التي كانَ يتبعها هذا الرجل في التصدي للرد على أخصامه... ما ينفك يجادل خصمه حتى يكشف جهله ويضحك الناس عليه! كان أستاذاً في الشك المنظم والتأمل الباطني، وفي علم الأخلاق العقلي وفي اللاهوت الأدبي... لكن سخره هو الذي قتله! وما خلده إنما هو قضيته ومحاكمته ومأساة النهاية التي انتهى إليها بسبب هذا السخر.

ففي سنة ٣٩٩ قبل الميلاد، وكان سقراط في السبعين تقدم بعض مواطني أثينا يطلبون محاكمة سقراط العجوز الكافر المفسد للشباب! كان من حق أي مواطن رفع الدعوى على من شاء. وتعقد الجلسات علناً في الهواء الطلق أما القضاة فمتطوعون يبلغ عددهم ستة آلاف يجري اختيارهم سنوياً اختياراً عشوائياً ليتوزعوا على اثنتي عشرة محكمة. في كل محكمة منها خمسمائة قاضي ورئيس معين وكتاب...

ومثل سقراط أمام مدرج يجلس عليه خمسمائة قاضٍ في أسفله صندوق يوضع فيه قرار القضاة وفي جانب منه القاضي رئيس المحكمة والكتبة، ووقف المدعي ميليتوس يتهم سقراط بالكفر بالآلهة وبإدخال الشياطين إلى المدينة وبإفساد الشباب... وأعقبه مدع آخر ثم مدع ثالث. وبعض هؤلاء هرب أولادهم إلى سقراط لا يريدون صناعة آبائهم لكنهم جميعاً لقوا أشد الأذى من تهكمه وسخره العلني منهم.

وكان للمتهم أن يدافع عن نفسه ولكن في وقت لا يجاوز الوقت الذي استغرقه الادعاء. ورد سقراط التهم ولكن بطريقة الهجوم المضاد. اتهم المدعين بالجهل المطلق قائلاً إني جاهل وأعرف أني جاهل وأما هم فجهلة ويجهلون أنهم يجهلون! وحذر القضاة من مغبة حكمهم لأن أثينا إن فقدته فلن تجد مثله ويغرق الأثينيون في السبات الأبدي. أما رفض الاتهام فيسمح لأثينا أن تعبر — كما عبرت دوماً — عن ضميرها الحي وفكرها...

ونزل القضاة المدرج يضعون توصيتهم في الصندوق وأدانوه بأغلبية

محدودة. ٢٨١ صوتاً. في هذه الحالة كان للمتهم نفسه أن يختار العقوبة. وكان بإمكان سقراط اختيار النفي أو السجن ولكنه عبر عن سخريته بالمحكمة كلها حين اختار أن تتعهده البريتانية!

والبريتانية مؤسسة أثينية تتعهد بالعيش الكريم عظماء رجال أثينية! لذلك قوبل قوله بالاستنكار والصخب وعادت المحكمة فصوتت على العقوبة: وكانت الإعدام! وبأكثرية ساحقة!!

وتأخر إعدامه شهراً لأن النظام لا يسمح به إلا بعد عودة الكهنة من جزيرة ديلوس وفي هذه الأثناء كان تلاميذه يترددون عليه في السجن يحاورونه ويسمعون منه قال أحدهم:

لم لا تكتب لنا علمك في صحف؟ قال: ما كنت لأضع العلم في جلود الغنم!

وقال آخر: ما ماهية الرب يا معلم فأجاب: القول فيما لا يحاط به جهل....

وجاءته زوجته تبكي مصيره فقال ما يبكيك قالت لأنك تقتل بلا حق فقال: وإنما تطلبين أن أقتل بحق؟

ودبر تلميذه الأثير قريطون أخيراً أمر هربه قال: دبرت كل شيء فتفضل بالهرب. ورفض سقراط وقال: خير لي أن أموت مظلوماً في بلدي من أن أموت شريداً في الغربة. يا قريذون هذا البلد بلدي وقد علمتكم إطاعة القانون لا التمرد على قوانينه ولو كانت ظالمة. ولو هربت فهل أتخلى عن نصرة الحق. وإذا عرض لي الحق في البلد الغريب أفلا أناصره؟ وإذا ناصرته أفلا أعاقب على ذلك؟... إذن فما الفرق؟...

حين أزفت ساعة الإعدام كان تلاميذه معه فدخل وتحمم ثم ناوله الجلاد كأس السم قائلاً:

ــ لا تتحرك كثيراً لئلا يفقد السم مفعوله.

فقال سقراط :

ــ ولم لا تضاعف كمية السم ، أليست هذه صناعتك ؟

وتجرع الكأس كلها دفعة واحدة وإذا بتلامذته يبكون دفعة واحدة .

وفيما كانت عيناه تجمدان علّق السجان : لقد تخلص من تنكيد زوجته !!

سليمان الحلبي

في باريس ، ذات يوم ، فاجأني منظر لا أنساه . كنت أتجول في متحف الإنسان ، في أحد ممراته الضخمة ولفت نظري في إحدى زواياه جمجمة وحيدة في جام من البلور واقتربت منها فإذا قد كتبوا تحتها :

جمجمة عبقري : وهذا العبقري هو ديكارت ... فيلسوف فرنسا المشهور . وما كدت أتحرك حتى لفتت نظري جمجمة تناظرها على الطرف الآخر ودفعني الفضول إليها واقتربت وإذا تحتها مكتوب : جمجمة مجرم ! .. ومن المجرم ؟ إنه سليمان الحلبي ! ...

وانفجر نهر من الدماء في عيوني ... وعادت صورة سليمان الحلبي ابن بلادي ، إلى خاطري عبر ١٩٥ سنة ! في سنة ١٨٠٠ ارتفع فجأة اسم سليمان الحلبي الشاب ذو الأربعة والعشرين ربيعاً من نكرة من النكرات ليصبح شخصية يعرفها تاريخ المشرق الإسلامي كله كما يعرفها تاريخ فرنسا ولتبقى قضيته معلماً بين الطرفين إلى اليوم ! ..

والقضية في الأساس ترجع إلى أيام التنافس الاستعماري بين فرنسا وإنكلترا وإلى تسابقهما إلى احتلال المواقع على الطريق إلى الهند . أحد فصول ذلك التنافس كانت الحملة الفرنسية التي قادها نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ وهي يومذاك من أراضي الدولة العثمانية . ووقفت إنكلترا والسلطان العثماني ضد هذه الخطوة الجريئة على طريق الهند . وفشل نابليون أمام عكا ثم هرب من مصر إلى فرنسا تاركاً الحملة نفسها لمصيرها وتولاها الضابط كليبر ! .. وطوق الأسطول

البريطاني من البحر والجيش السلطاني من البر هذه الحملة. يجب ألا تبقى! وكان الإنكليز يطمعون أن يأخذوها أسرى حرب!

كان كليبر كارهاً للبقاء في مصر وبالرغم من التطويق ومن ثورات القاهرة عليه فقد تصرف تصرف من سيبقى في البلاد... والبلاد تغلي بغضاً لوجود الكفار الفرنسيين على أراضي الإسلام وللقبعات الفرنسية الغريبة وللرطانة بما كانوا يسمونه بالجمهور الفرنساوي ومقارنة مبادئ الثورة مع دين الله!

صبيحة يوم السبت ١٤ حزيران / يونيو / ١٨٠٠ كانت حارة رطبة وترك كليبر قيادته في الجيزة إلى جزيرة الروضة ليستعرض فرق الأروام ثم ذهب مع المهندس بروتان ليفحص أعمال الترميمات الجارية في قصر القيادة العامة بالأزبكية، وهي سراي الألفي بك. ويتناول الغداء في دار الجنرال داماس بجوارها وكان يربط بين السراي وبين هذه الدار ممر طويل مظلل بكرمة عنب، خرج الضيفان يتمشيان في ظلها من الحر الشديد. وفيما هما في الممر طلع عليها متسول يطلب صدقة فأشار إليه كليبر يطرده: ما فيش!.. مافيش!.. ولكن الرجل ظل يتقدم في مسكنة كأن له حاجة وأومأ بيده اليسرى كمن يريد تقبيل يد كليبر فما مدها حتى قبض الرجل عليها وضربه بخنجر أربع ضربات شقت صدره وعنقه. وحاول بروتان مساعدته فأصابته بعض الجراح.. ولم يبعد السائل هرباً لأن الفرنسيين ضربوا الطبول واستنفروا العساكر وعمروا المدافع ووقعت هوجة عظيمة في الناس وسرعان ما عثروا على الرجل كامناً في البستان المجاور للقيادة، في ظل حائط... متهدم.. هذا السائل هو سليمان الحلبي!

القضية عملية انتقام ديني ــ وطني معاً عملية جهاد أو غزو ــ كما قال سليمان نفسه ــ كانت لها رنة فرح في مصر كلها ولكنه فرح مكتوم أخرس، وانتظر الناس القتل السريع للرجل كما كانت العادة جارية أيام المماليك من قبل ودهشوا حين وجدوه يحال إلى التحقيق والاستجواب وإلى

محكمة وقضوة وقوانين ... سألوه في التحقيق عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه شامياً وسألوه أين يأوي فوجدوه يبيت في الجامع الأزهـر وعرفـوا بالسؤال والجواب أن له في مصر واحداً وثلاثين يوماً وأنه أقام بها من قبل عدة سنوات وأنه لم يخبر أحداً بفعله سوى أربعة نفر هم رفاقه في رواق الشوام بالأزهر ، بعثوا فقبضوا على ثلاثة منهم ، وعلى معلم عجوز له اتصل به ....

وأحالوا كل أولئك إلى المحكمة العسكرية التي تألفت من تسعة قضاة ومدع عام ووكيل عن المتهمين وكاتب واجتمعت المحكمة في دار رئيسها الجنرال رينيه يومين .

كان انكشف في التحقيق ثم في المحكمة أن سليمان الذي عاش ثلاث سنوات من قبل في مصر ومثلها في مكة والمدينة كان قد اتصل بأغوات الانكشارية في القدس وغزة والخليل واستغل بعضهم حماسته الدينية وحرضه وأنه قدم مصر على هجين في ستة أيام وأنه تعقب كليبر في الجيزة والقاهرة ودخل كأنه عامل بناء في جملة العاملين على ترميم السراي ... حتى كان القتل وعرف أيضاً أن زملاء سليمان في رواق الشوام ، كلهم من أهل غزة وقد حاول بعضهم أن يثنيه عن عزمه أكثر من مرة ولكنه لم يستمع لتخوفاتهم وهكذا اعتبر هؤلاء الشباب عبد القادر ومحمد عبد القادر وأحمد شركاء لسليمان في الاغتيال ومذنبون ...

أما المتهم الخامس مصطفى البورسلي ، وهو شيخ كتاب في الواحدة والثمانين فلم يثبت عليه معرفة شيء في الموضوع ....

وصدرت الأحكام قاسية رهيبـة . صحيـح أنهم اتبعـوا الأصول في التحقيق والمحاكمة ولكنهم اتبعوا الوحشية في الانتقام بعد ذلك .

ــ حكموا بإحراق اليد اليمنى لسليمان الحلبي ثم إعدامه على الخازوق وإبقاء

جثته حتى يأكلها الطير وحددوا مكان التنفيذ فوق تل العقارب ظاهر البلد .

— وحكموا بإعدام الأربعة قتلاً بالسيف وبوضع رؤوسهم على العصى وإحراق أجسامهم بالنار على التل نفسه ، وتعليق هذه الأحكام على بيوتهم .

— تبرئة مصطفى البورسلي وإطلاقه ...

— طبع خمسمائة نسخة من قرار المحكمة بالعربية والتركية والفرنسية لتعليقها في المحلات العامة .

وقضوا بتنفيذ كل ذلك فور الانتهاء من الجنازة الضخمة التي أخرجوا بها جثمان كليبر بالبيارق والطبول والسلاح المنكس والمدافع التي تجلجل ...

... وأعود إلى الجمجمة الحبيسة في جام من البلور في متحف الإنسان وأتساءل :

— من المجرم يا ترى : سليمان المدافع عن بلاده أم كليبر المحتل ؟

نهاية أمة (الموريسكيون)

نحن الآن في أواخر سنة ١٤٩٩ ... وفي ميدان الرملة أعظم ساحات مدينة غرناطة في الأندلس رياح الخريف عرت الأشجار من ورقها الذهبي وأوائل الثلوج تتراءى على الجبال فالريح الباردة تصفع الخدود رغم الشمس الساطعة. الساحة في حركة غير عادية. الرهبان بالمسوح السود كثيرون جداً. إنهم منذ سقطت البلد في أيدي الاسبان وأخذوها من أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس قبل ثماني سنوات هم أسياد البلد ولكنهم اليوم يروحون ويجيئون ويرمون في الساحة أكواماً من الكتب والأوراق ... من كل الطرق يأتون ويضيفون المزيد. قبل سنوات كانت هذه الكتب مقدسات مصانة، وثروات يضن بها أصحابها كل الضن. واصطف الرهبان في النهاية وبيدهم المشاعل وأطل موكب كبير من الشارع الأعظم. إنه الكاردينال سيسنيروس الذي انتهى إلى دكة عالية يصدر الميدان وكبار الكنيسة من حوله ثم تلا من ورقة قدمت له شيئاً بالاسبانية لم تفهمه الأعين الغاضية الكثيرة التي تسمرت مصعوقة خلف الصفوف. وأعطى الإشارة للمشاعل فانغمست في الكتب وتصاعدت النيران تأكل الورق والحبر. هذه المحارق في الأندلس كلها تكررت. إنها أوامر الكاردينال الجلاد أن تحرق الكتب العربية. أن يحرق كل حرف عربي، أن تحرق المصاحف خاصة. القلعة التي يعتصم بها المسلمون هؤلاء «الموريسكيون» الكفار الذين يسكنهم الشيطان يجب أن ينتصروا أو

يموتـوا ! ... كذلك كان يقـول . القضيـة هذه المرة هي افتـــراس شعب لشعب ! ...

مالت الدنيا بعرب الأندلس وهم قرابة نصف مليون مسلم ، خسروا الحرب أمام الاسبان الكاثوليك فصاروا قطيع بشر من الدرجة الدنيا . صاروا رعايا مكروهين وعبيداً دون أية حقوق ! لا خيار لهم إلا واحداً من ثلاثة : التنصر القسري أو الهجرة أو ... الموت !

مع ذلك ، لم تطل هذه القضية . لقد استمرت فصولها المأسوية أكثر من مائتين وخمسين سنة . ومائتين وخمسين سنة طل المسلمون صامديـن كالحجر الصلب تتآكل أطرافه فتاتاً ولكنه لا ينكسر حتى ذاب . بعد أن فر عشرات الألوف بدينهم مهاجرين ! في أرض الله ! ... لم يبق شيء من صفوف العذاب والإرهاب والاضطهاد والتعسف لم يستخدمه الاسبان في هذا الليل الطويل الطويل ولم يبق شيء من صنوف الصبر والثورة والمهادنة والسر لم يصطنعه بالمقابل المسلمون ! ...

لم يكن أبطال هذه القضية هم الملوك والأمراء والجند فقط . القضية لم تكن سياسية معاً . وأصحابها الحقيقيون هم أصحاب القلانس الذين لابسوا أرجوان الملوك ، والملوك الذين لابسوا أصحاب القلانس . وإذا كانت سمعة هذه المحاكم في التاريخ سوداء كمسوح قضاتها فلأن هذا التاريخ لم يعرف حقداً ظل يرشح راعفاً من المقت بمثل ذلك السواد وعلى مثل ذلك المدى الطويل .

ألم تسمع بمحاكم التفتيش ؟ هذه هي المحاكم التي تولت القضية ! ...

وليس هذا الاسم باسمها الحقيقي . اسمها الأصلي ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي . وقد أقامتها البابوية في القرن الثالث عشر ، لتحمي أتباعها من الديانات الأخرى ، وتولى هذه المؤسسة رهبان الدومينيكان . نشروها حيث تنتشر أديرتهم في أوروبا ووجدوا فيها طريقاً آخر إلى نفوس الناس وإلى السيطرة

عليهم في اسبانيا أقامها راهب صار قديساً باسم سان دومينيغو دي غوثمان ضد ملحدي الدين في غربي منطقة آرغون وتبناها الأساقفة الآخرون في بلنسية وقطالونيا ...

وحين اتحدت مملكتا قشتالة وآراغون بزواج ملكيهما فرديناند وإيزابيلا وطوقت المملكة الجديدة إمارة غرناطة الإسلامية لابتلاعها النهائي كان ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي أحد أركان المملكة منذ سنة ١٤٨٠ قد فتح أبوابه ما بين إشبيلية في الجنوب إلى تطيلة في الشمال. بعد ذلك بسنوات ثلاث عين البابا الأب توماس دي توركيمادا أول رئيس عام لهذا الديوان. ثم مالبثت إمارة قطلونية ومملكة بلنسية ونبرة أن أنشأت مثله لديها منذ سنة ١٥١٦ ... العمل الوحيد لهذا الديوان كان تصفية آخر أثر للإسلام في إسبانيا بأي وسيلة ... ولو كانت الإبادة! ولو كانت التصفية الجسدية، وفي غمرة ذلك الهوس لإعادة اسبانيا كاثوليكية خالصة شملت التصفية اليهود أيضاً وأيضاً ...

الغريب أن القوم كانوا يصرون على إضفاء الشكل الشرعي والقانوني على هذه الإبادة الجماعية المنظمة تماماً. كما تفعل إسرائيل اليوم. كانوا يصدرون ويحيلون إلى المحاكم وهم يعرفون في النهاية: لماذا أصدروا؟ وفيم أحالوا؟ وأين يريدون الوصول؟ لقد قرروا أن لا مكان لشعبين في اسبانيا ولا لدينين وقرروا أن تكون اسبانيا لهم!

هل أعرض شيئاً من القوانين ومن التحقيقات والمحاكمات؟ لا ضرورة لذلك فكلها نموذج مكرور متشابه ولو امتد مائتين وخمسين سنة! القوانين التي كان بعضها يتكرر بأشكال متزايدة التضيق تدخل كلها من باب التحريم والمنع. لقد انتهى الأذان منذ زمن فلا مؤذن في المآذن، خرست هذه الأبراج ذات الأهلة، ولا صلاة في المساجد ولا خارجها لقد تحولت كنائس أو مزابل. الصلاة صارت طقوساً سرية تمارس في منتهى الخفاء في الأقبية بعيداً عن

العيون ! لكن الحلقات ظلت تضييق بعد ذلك : ممنوع حمل أي سلاح ، ممنوع لبس الملابس العربية ، ممنوع الحديث بالعربية أو الكتابة بها . ممنوع الانتقال من منطقة إلى منطقة . ممنوعة الزكاة ، ممنوع الذبح الإسلامي ، ممنوع الصوم وجزاء الصائم الإحراق ، ممنوع الغناء العربي ، ممنوع إغلاق أبواب البيوت ، ممنوع الحجاب في الشارع ، ممنوع الالتجاء إلى الكنائس والأديرة ... ممنوع الاغتسال ، إنه سمة إسلامية وقد هدمت الحمامات العامة فلا حمام ! وفي خلال ذلك كانت تصادر الممتلكات والبيوت والأراضي بكل الحجج ... ويطرد أهل القرى أفواجاً للتهجير كالأغنام ، ويجبر المسلم على الزواج في الكنيسة وترغم المسملة على الزواج من المسيحي ... أما أولاد المسلمين فيساقون إلى التعميد ثم إلى الأديرة رهباناً للمستقبل ! والويل لمن يخالف هذه المراسيم ، إنهم يكشفونهم من خلال الأبناء المجندين ضد الآباء ، من خلال الجواسيس الذين تنصروا بدلوا أسماءهم من بدر إلى دون بدرو ومن حسن إلى خاسينتو ومن خليل إلى دون خوان !!

من خلال الماء الخارج من مزاريب البيوت يوم الجمعة ! ... بسبب الحمام يدخل المسلم في النفق الذي ينتهي إلى القبر ! دوامة التحقيق تبدأ بالتعذيب حتى يجري الاعتراف فإن كان الاعتراف بدأ التعذيب كرة أخرى لإخراج الشيطان من الجسد . ولا يخرج إلا بالتنصير أو الموت . والتعذيب ألوان فيه الصلب على دولاب متحرك وتكسير الأطراف واحدة واحدة ونتف الشوارب واللحي . والتعليق من الأرجل وعصر الأضلاع بين دفتين وغرز الابر تحت الأظافر وخلع الأطراف ونزع اللحم والعضلات بالكلاليب ودق المسامير في الجسد . والإحراق البطيء بالنار ... آلات كل ذلك ماتزال محفوظة في مواضعها من الأقبية شاهدة ...

أما المحكمة والقضاة والأسئلة بعد ذلك فأمور تستكمل القضاء

الشكلي وتصدر الأحكام بالموت حرقاً أو بالسجن ومصادرة الممتلكات وأحكامها نهائية تصدر باسم السيد المسيح !

ولم نتحدث عن المحارق التي لا تكاد ينطفىء وقودها الناس والحجارة ولا عن خلط المصاحف بالزبل والأقذار ولا عن الإرغام على شتيمة الرسول الأعظم ولا عن المحاكمات بالجملة ولا عن السجون اهترأ فيها المساجين ولا عن فرق القتل تملأ الشوارع بالجثث ولا عن الثورات التي قام بها المسلمون ثورة إثر أخرى إثر ثالثة ... وتسحق بمنتهى العنف والقسوة والتدمير المبيد بعشرات الألوف من الجند. بهذا الشكل انتهت القضية وتكثلكت اسبانيا وانتهى الإسلام فيها !

وليتنبه العرب ... إن الصهيونية تسير في فلسطين على خطى محاكم التفتيش ... أم على قلوب إقفالها ؟ ...

السهروردي القتيل

وهذا صوفي آخر غير الحلاج وقضية أخرى غير قضيته ... ولكن بعد ثلاثة قرون تقريباً من أيام الحلاج، وفي حلب لا في بغداد ...

في تلك الأيام من سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١ ميلادية كانت الدنيا العربية كلها قد اختلفت عن أيام الحلاج وعصره. الصليبيون كانوا قد هزموا على طول الساحل الشامي من أطراف أنطاكية حتى أقصى فلسطين بعد أن سيطروا على هذا الساحل تسعين سنة. وكان اسم صلاح الدين الأيوبي بعد حطين وتحرير القدس قد غطى على كل الأسماء الأخرى في العالم الإسلامي ترك في الظل حتى الخليفة العباسي في بغداد. صحيح أن الصليبيين تشبثوا ببعض نقاط الساحل في الشام بأنطاكية، بطرابلس، بصور ثم بعكا لكن ضربات صلاح الدين كانت قد أخذت منهم كل المدن والبقاع الأخرى التي تعبوا في احتلالها والحفاظ عليها كل السنوات التسعين! ونثر صلاح الدين حكم المدن والأقاليم بين أبنائه وإخوانه وقادته ضماناً لتماسك السلطنة المجاهدة التي أنشأها ما بين برقة ومصر إلى اليمن إلى الشام إلى أعماق الجزيرة ...

كان ابن صلاح الدين الملك الظاهر غازي في قلعة بحلب حين حدثوه حديث رجل لا كالرجال دخل المدينة وفتن الناس بها. قالوا عنه أنه أحد أذكياء بني آدم. وقالوا أنه من أبرع الناس في علم الكلام وأن الناس يجتمعون إليه في المسجد الجامع ليستمعوا إلى مناظراته الرائعة وجدله المتين مع

الشيوخ ... واستهزائه بهم وبجهل بعضهم وسأل الملك الظاهر عن اسم هذا الرجل فقالوا :

ــ هو شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي . وقالوا هو شاب في السادسة والثلاثين قرأ الحكمة ودرس الفقه في مراغة بأذربيجان على يد كبار الشيوخ مثل مجد الدين الجيلي أستاذ الإمام الرازي وعدد كبير من الشيوخ غير المرموقين وأنه جال في البلاد ما بين أصفهان وبلاد الروم ودمشق ... وقالوا أيضاً ــ أنه رأس في معرفة علوم الأوائل : يعرف الكيمياء والفيزياء والفلسفة والمنطق وعلم السيمياء وفنونه . ولكنه رقيق الدين قليل التحرج وتجري على لسانه كلمات ... ليس بينها وبين الكفر شيء !...

وقالوا أيضاً وأيضاً : إنه صوفي متزهد ، زهد انصراف عن الدنيا وفراغ منها ، لا يهتم لشيء من شأنها ويحتقر كل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية ... وإنه شاعر أيضاً وأنشدوا من شعره الصوفي :

أبداً نحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وارحمتا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح !

وقالوا إلى هذا كله أنه غريب الأطوار يلبس تارة ثوباً واسعاً طويلاً وعمامة زاهية وتارة يسير في ثياب مهلهلة وتارة ثالثة يكتفي بخرقة التصوف ، وجبته قصيرة وعلى رأسه فوطة مفتولة وفي رجليه زربول .

وطلب الملك الظاهر أن يؤتى به إلى مجلسه . وحين دخل الرجل : وجده المجلس زري الهيئة ، مهمل اللحية والشعر كأنه لم يغسل ثوباً ولا جسماً ... ولا قص ظفراً منذ سنين ... ولكن انكماش الملك لهذا المنظر ما لبث أن حل محله الإعجاب والتقدير . حين تحدث ، وعقد له مجلساً خاصاً من العلماء فبهرهم بعلمه الغزير وجدله السديد وبقوة حجته وسعة اطلاعه .

وبشيء من الغيبية كانت تموج في كلماته وتضفي عليها طابع المعميات واحتمالات التأويل . . .

وأخذ الملك الظاهر بهذه الغيبية ، اعتبر وجود السهروردي عنده بركة إلهية وأنه سيد الوقت وأحد أركان الدنيا ومع أن بعض حاشيته من الشيوخ . كان يهمس في أذنه أن علمه أكبر من عقله . وأنه قد يكون أوحد زمانه في علوم الحقيقة والفلسفة ولكن ذلك قد يؤدي بالإنسان إلى الزلل وإلى الكفر . . . فأصم الملك أذنيه عن هذا الحديث ، في الوقت الذي كان فيه صلف السهروردي وهزؤه بالعلماء يخلق من حوله ألف حقد وحقد . . . ولم يكن هذا الشاب الصوفي ليحتفظ وهو مستند إلى رضى السلطان فكان يخلع مع العلماء كل تحفظ . يستخدم تعبيرات شائكة جداً . يتحداهم بكل ما في أعماق فكره ويتركهم أشتاتاً في تأويل أحاديثه . واعتداده الذاتي المطلق كان يسمح لأي سهم أن يصيبه !

اتهمه العلماء أولاً لدى الملك الظاهر فعقد له مجلساً للمناظرة بقلعة حلب . وكان بعضهم يرى أن يعقد له في المسجد الجامع لأن المسألة فقهية ولكن أخصامه أرادوا إحراجه أمام الملك الظاهر . وقد زعموا أنه يدعي النبوة فسألوه :

ــ هل يملك الله أن يخلق نبياً بعد رسول الله ؟

فقال :

ــ إن الله قادر على كل شيء . . .

قالوا :

ــ إلا على خلق نبي لأنه الرسول خاتم الأنبياء .

فقال :

ــ هل الاستحالة هنا مطلقة أم غير مطلقة .

وذعروا لهذا الجواب، اعتبروه كفراً محضاً، كان حقدهم هو الذي يسبقهم في الحكم. واجتمع بعضهم إلى بعض يتشاورون، رأوا أن دولة صلاح الدين التي انتصرت على الكفار بالإسلام مهددة بخسارة ما كسبت بسبب هذا الكافر الذي استأثر بالملك، يقوده إلى الكفر، وقرروا كتابة محضر يشهدون فيه بكفره وإن دمه حلال ويرسلونه إلى السلطان صلاح الدين....

اعتبروا أنفسهم محكمة شهوداً، لم يكتبوا في المحضر أن هذا الرجل صوفي وله ٤٩ مؤلفاً في الحكمة والتصوف. ولم يرضوا بتأويل كلامه الحرفي من خلال مذهبه الفكري واكتفوا بأن خوفوا صلاح الدين من أن يفسد عقيدة ابنه ويخرجه عن الدين... وقالوا أن عليه أن يتنبه إلى الخطر السياسي الذي يكشفونه من أمر السهروردي فلو ترك حياً لما أفسد عقيدة الملك الظاهر ولكن لعم فساده البلاد... وقالوا أنه مشعبذ يترك يده تارة ثم يستردها ويدعي زيارة الكعبة وهو في حلب! تارة أخرى...

الذين وقعوا هذه الرسالة كانوا أعظم مشايخ حلب وأكثرهم قوة سياسية ودينية معاً وقد أفتوا بحل دمه. ووجد صلاح الدين أن من السهل التخلي عن فرد من أجل الجماعة فأرسل إلى ابنه يأمره بقتل الشيخ. وتردد الظاهر فاستأنف الشيوخ لدى صلاح الدين، وذكروه بأن عاقبة إهماله ثورة الناس لدينهم فكتب إلى ابنه فقتله دون مراجعة وهدده بخلعه عن إمارة حلب إن لم يفعل ذلك. إن الشيوخ ذكروا من الاتهامات أنه إسماعيلي... وكان هذا كافياً لكي يرتجف كيان صلاح الدين الذي ألغى الخلافة الفاطمية الإسماعيلية وقاسى من الإسماعيلية عدداً من المؤامرات لقتله...

ما الذي تم بعد ذلك؟ لسنا نعرف على وجه الدقة. بعضهم يقول: خنق الرجل خنقاً. وبعضهم يقول قتل بالسيف وصلب أياماً، وبعض يقول: بل خيره الملك الظاهر فاختار الامتناع عن الطعام حتى الموت... كان معتاداً رياضة الصيام واختار الموت به... وقضى السهروردي على أي حال...

هل انتهت قضيته الكبرى؟ أبداً ظل الناس من بعده يختلفون فيه: بعضهم يجعله قطب الوقت وبعضهم يزندقه ويسميه: السهروردي القتيل... يأبى أن يسميه الشهيد!

ماري أنطوانيت

ماري أنطوانيت اسم لامع جداً في التاريخ الفرنسي والأوروبي . لامع أكثر من اسم أخيها امبراطور النمسا ومن أبيها الامبراطور . ولو أنه لمعان أسود سلبي . والذين يريدون الإتيان بمثال على مدى البعد بين الشعب والحكام لا يجدون أبلغ من ترداد كلمة ماري أنطوانيت التي قيل لها : إن الشعب جائع ، لا يجد الخبز فقالت : ليأكل الكاتو ! والكلمة أسطورة ولكنها شائعة . . .

وبالرغم من أن الكثير من الأعذار والحقائق عادت إلى ذلك الاسم تعيد إليه اعتباره حتى لدى الفرنسيين الذين يتعاطفون اليوم مع ماري أنطوانيت ولويس السادس عشر زوجها ويرون أنهما بريئان أو على الأقل لا يستحقان مصيرهما وأنهما ضحية ظروفهما التي لم يكونا يملكان دفعها إلا أن الأحقاد التي أثارتها الثورة الفرنسية المشهورة حولهما كانت كافية لخنقهما بنهر من الدماء ! وانصبت النقمة السوداء على « النمسوية » من كل الأحرار لا في فرنسا وحدها ولكن في أوروبا كلها . صارت رمزاً للظلم وصارت محاكمتها رمزاً للخلاص وقطع عنقها رمزاً للحرية . وحين يغضب التاريخ ليس يدري أحد كيف ينزل بلعنته ولا على من ينزل هذه اللعنة !

حين زفت ماري أنطوانيت إلى ملك فرنسا انتقلت من أعظم قصور أوروبا في النمسا إلى أعظم قصور أوروبا في فرنسا ومن حرير هابسبورغ إلى حرير أسرة بوربون الأسرتان كانتا المالكتين سيدتين على نصف أوروبا عدة قرون . ماقرأ أحد من العرافين ولا قارئ الفنجان المصير الأسود الذي ينتظرها يوم بدأت

الأمور تتدهور من حولها وتتدهور من شهور في أحداث متلاحقة فإذا بها تنتهي إلى المقصلة... حتى قبل أيام فقط من يومها الأسود ما كان لها أن تصدق ما سوف يجري عليها!

لم تكن قد جاوزت الثامنة والثلاثين ومع ذلك فقد شاخت في هذه السنة نصف قرن! شعرها الأشقر الذي كانت تعقده وترجله عشرات الوصائف صار أبيض مهملاً. وجهها الذي كانت تشتهيه المرايا صار أخاديد. زوجها الملك قتلوه منذ أشهر طويلة أولادها انتزعوا منها. وبعد القصور الكبرى التي يدور بها السائحون اليوم مبهورين في فرنسا. ها هي صاحبة القصور تجد نفسها في بعض أيام تشرين الأول / أكتوبر / الشديد البرد من سنة ١٧٩٣ في زنزانة صغيرة مظلمة! وبدل آلاف الخدم من حولها ثمة فقط بعض السجانين والبنادق!... التهمة؟ معاداة الثورة والشعب. كانت الثورة الفرنسية تدخل في تلك السنة أيامها العصيبة المجنونة.

ومعاداة الثورة والشعب في تلك الأيام كانت تعني ما هو أقسى من الكفر!

وانصب كل حقد الثوار، كل غضبهم، كل شقائهم على هذه المرأة التي أضحت الرمز الأخير الحكم الملكي المطلق...

فتحت بوابة الزنزانة عليها بعنف ونودي بها إلى المحاكمة أيتها النمسوية!

ومشت ترتجف من البرد إلى قاعة في السجن ليست بالكبيرة انتصبت في صدرها ثلاثة وجوه هم هيئة المحكمة وفي جانب منها اثنتان وعشرون عيناً حمراء قد صرخ فيها الحقد صراخاً. أجير مقهى. موسيقي، نجاران، إسكاف، عامل مطبعة، جراح، حلاق، قانوني سابق، صانع قبعات، ونبيل تخلى عن لقبه! هم هيئة المحلفين الذين اختارتهم المحكمة! في الجانب الآخر كان ينتصب المدعي العام فوكييه. ومن ذا الذي يجهل يومذاك هذا الرجل الذي

كانت تعوي وراءه آلاف الأعناق المقطوعة! إنه أكبر مورد رؤوس عرفته المقصلة! وهو الذي اختار المحلفين... أما الحضور من الجمهور فكانوا بضعة نفر! وقرأ المدعي العام قرار الاتهام فإذا هو صفحات بعد أخرى من مختلف التهم تتراوح بين تبديد الأموال وسرقة الخزينة والتآمر على الدولة مع الأجانب وتسريب المعلومات عن الجيش للأعداء... وبين الاتهام بالشذوذ مع ابنها أيضاً وأيضاً! وانفجر التقزز في القاعة ولم يستمع أحد إلى احتجاج المتهمة ورفضها كل ذلك.

وبدأ سماع الشهود واحداً بعد الآخر واستجواب المتهمة ذات الثوب الأسود والشعر الأبيض واستغرق ذلك ثلاثة أيام...

سألوها عن سبب استعلامها عن الجيش وفرقه العسكرية! وعن تعيين الوزراء وعن الإسراف في بناء قصر التريانون الصغير وعن طلب تحويل الأموال إلى الخارج، وعن مدى سيطرتها على زوجها الملك السابق وحين وصلوا إلى السؤال عن مدى اتفاقها مع أخيها امبراطور النمسا، انكشف أن الثورة تريد أن تنتقم من هذا العدو الذي كانت جيوشه يومذاك تهاجم فرنسا في سباق مع الزمن للوصول إلى العاصمة الفرنسية وإنقاذ أخته والملكية الفرنسية وسمعة النظام القديم كله! كانوا يحاكمون في ماري أنطوانيت أخاها!

ولم تنفع مرافعة المحامي الذي أوكلت إليه المحكمة مهمة الدفاع رغم بلاغته وقوة حججه بل جرى العكس لقد حقدت عليه المحكمة لأنه أحسن الدفاع وكاد يقبض عليه بتهمة العداء للثورة!

بعد منتصف الليلة الرابعة، رغم البرد الشديد كانت جماهير واسعة تنتظر خارج السجن قرار المحلفين الذين اجتمعوا وصدر القرار. المتهمة مذنبة!

ووقف فوكييه الذي زاد ظلال الشموع من تضخيم جثته ليطلب

إرسال رأس جديدة إلى المقصلة ، إضافة إلى ما سبق أن أرسل من قبل وإلى ما سوف يرسل !

وفي حين كانت ماري أنطوانيت تعود إلى زنزانتها لتلبس البياض رمز الحزن الملكي كان الخبر ينتقل كالبرق إلى الجموع خارج السجون وإلى أحياء باريس ومن باريس إلى المدن الأخرى !

وقبل أن تركض الأفواه بالخبر بعيداً كان الإعدام نفسه قد تم . لم يكن بين صدور الحكم وتنفيذه سوى ساعات ...

في الساعة التاسعة من الصباح أخرجوها مجرورة بحبل . وقد قصوا شعرها وغطوا رأسها بقبعة عادية وأوثقوا أيديها من خلاف . وفي عربة مكشوفة لجمع القمامة مروا بها في شوارع باريس التي شهدت مواكبها الملكية ! وكان الخبر بإعدامها قد جمع الحشود الحاشدة على الطرفين .

كانت توزع نظراتها الزائفة بين التعالي والدهشة والرعب أما الجمهور فلم يوفرها من الشتائم ومن بعض الدموع ! حين وصلت المقصلة أسرعت تصعد سلمها ولم تسمع هتاف « تحيا الجمهورية » حين هوت سكين المقصلة على رقبتها ... كانت عنقها قد قطعت ...

ومن غريب الصدف أنه في ذلك الصباح الذي كانت فيه ماري أنطوانيت تعدم بوصفها عدوة للثورة كانت جيوش الثورة تنتصر على الهجوم الأجنبي الذي تقوده جيوش أخيها في فالمي ضد الثورة ... وتنتصر الثورة بذلك نصرين !! ...

السيد المسيح

... والسيد المسيح كان في عهده قضية كبرى ! ... وكانت له محاكمة ومن يحكمون ... أأحدثكم بقضيته ومحاكمته ؟ كان ظهوره المفاجىء في مجتمع اليهود في فلسطين هزة أشبه بالزلزلة . جاء يجدد الناموس كله ، والكهنة اليهود يعيشون على هذا الناموس ويعيشون به وكان أكثر ما أثارهم عليه أنه كان يدعو إلى هدم المعبد . كان يعلن أنه ... المسيح المخلص في حين أنهم يعلمون أنه يسوع بن مريم !!

والمعبد الذي يذكرون : يسميه اليهود هيكل سليمان ويدعون أنه له ويبحثون إلى اليوم تحت المسجد الأقصى ومن حوله هذا المسجد عن بعض حجارته ... وهم يعرفون كل المعرفة أن لا علاقة لنبي الله سليمان الذي وجد قبل ألف سنة من المسيح بهذا الهيكل فقد هدم هيكل سليمان القديم قبل ستة قرون من بناء هذا الهيكل الثاني الذي بدأ بإقامته هيردوس الملك قبل عشرين سنة فقط من الميلاد وظل يبني ويبني خمسين سنة وعمل بعض رجال الدين في إقامة الأقداس فيه ....

وحين دخل السيد المسيح هذا الهيكل في بعض أيام نيسان / ابريل / من سنة ٣٠ للميلاد لم يكن قد أنجز بعد ومع ذلك : وجد فيه المرابين والصيارف وباعة الحمام فأخرج منه جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون وقلب موائد الصيارف وكراسي باعة الحمام وقال لهم مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى . وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ... » .

وكان كهنة اليهود يومذاك آخر من يمكن أن يقدر رسالة السيد المسيح أو يفهمها. أو يقبل بأنه المسيح المنتظر. فالمسيح المخلص في نظر بعضهم ملك من نسل داوود. وهذا قد أنكر أنه من نسل داوود وقال: مملكتي ليست من هذا العالم. والمسيح في رأي بعضهم الآخر بطل محارب يحرر اليهود بالسيف من الرومان. وهذا يقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ولا يؤيد الثورة ويقول بإعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله... والمسيح الذي ينتظره آخرون زعيم روحي يجسد الحكمة والعقل والسلام ويخضع الكفار ويفرض الشريعة الموسوية على الأرض وهذا لا يهتم إلا بطهارة النفس ولا يتمسك بتقاليد الناموس وحين سألوه عن العمل يوم السبت قال: السبت إنما جعل للإنسان وليس الإنسان لأجل السبت! وخفف عن الناس شروط الطعام والطهارة وأوقات الصوم...

أهم من كل هذا أن هذا المسيح قام بعدد من المعجزات وكان يقف ضد الأغنياء وبجانب المستضعفين والفقراء. ويقول أنه أسهل أن يمر جمل من ثقب الابرة من أن يدخل غني ملكوت الله!». وكان يقف بخاصة ضد تميز اليهود وكهنتهم على الشعوب جميعاً ويدعو إلى تساوي البشر... وهذا لا ينقص التعاليم اليهودية فقط من الأساس ولكن يزعزع مراكز الكهنة جميعاً ويلغي مكانتهم ورأوا فيه فرقة دينية جديدة في سبيل الظهور بعد الفرق الكثيرة الأخرى التي سبقتها! وهذه الأفكار الغريبة قد تصبح مصدر خطر جارف... لذلك اضطرب الكهنة حين وجدوا هذا المسيح يصل إلى قلب الهيكل ويقلب الموائد. فأرادوا قلب المائدة في وجهه!

قرروا أن يأتوا به إلى مجلس السنهدرين لمحاكمته على هذا التجديف كله. كان ما يزال نكرة من النكرات بالنسبة إليهم فبحثوا عن بعض أتباعه

التلاميذ ليدل زبانيتهم عليه ... وجدوا يهوذا الأسخريوطي الذي باع سيده بدراهم من الفضة ودلهم عليه ....

أتوا به من على جبل الزيتون . إلى قاعة الحجارة المصقولة في الهيكل . سبعون كاهناً اصطفوا في الصدر منهم اسماعيل وأليعازار وناتان على مسافة منهم جلس وجهاء القدس وجلس من خلفهم الكتاب . وكان لكل امرئ في ذلك المجلس أن يتصدر للكلام والاتهام لكن أحكام السنهدرين لا تنفذ إلا حين يصدق عليها الحاكم الروماني . فهو صاحب القرار الأخير وهنا كانت المشكلة لكن لم يكن صعباً أن يؤخذ السيد المسيح بأقواله نفسها فلم يكن ليغيرها . ولم يكن صعباً أن تحبك الشبكة من حوله ليقع فريسة سهلة مع غباء الحاكم الروماني وسرعة قراره .

وشهد شاهدان أنهما سمعا السيد المسيح يقول : اهدموا هذا المعبد وأنا كفيل ببناء آخر دون حاجة لأحد ! وسألوه فصمت : لقد قال ذات يوم إذا هدمتم المعبد أتولى بناءه ؟

وسألوه ثم سألوه عن أشياء كثيرة ليجيب عليها حتى نفذ صبر رئيس الكهنة وأراد إنهاء المحاكمة بضربة حاسمة قال :

ـــ أطالبك باسم الله الحي القيوم أن تقول : ألست تدعى أنك ابن الله ؟

ويقولون أنه اعترف وأضاف منذ هذه اللحظة سترد من ابن الإنسان يجلس على يمين العزة الربانية ! وهنا انتفض كبير الكهنة في حركة مسرحية مزق فيها ثيابه وهو يقول :

ـــ مساس بالذات الإلهية ! هل تحتاجون دليلاً آخر ؟ لقد سمعتكم بآذانكم فماذا تقررون ، وأجمعوا على ما كانوا قرروه قبل المحاكمة .

ـــ الموت !

وقرروا تسليم المحكوم إلى بيلاتوس النبطي، ممثل الامبراطور ليصدق الحكم وينفذه .

كان حكم الكهنة دفاعاً عن أنفسهم وأما بيلاتوس فلم يكن يأبه كثيراً بهذه القضية التي لا تمثل بالنسبة إليه أكثر من خلاف ديني عادي بين فريقين من اليهود وما أكثر فرق اليهود . كانت قضية الأمن وحدها هي التي تشغله وأراد أن يعرف مداها من المسيح نفسه ولكن الحوار بينهما كان نوعاً من حوار الطرشان .

ــ هل تحرض على الثورة ؟

فأجاب مملكتي ليست من هذا العالم .

ــ إذن أنت تدعي أنك ملك ؟

ــ أنا أقول أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وما أنا إلا شاهد الحقيقة ....

ولم يقتنع بيلاتوس. قال ذلك علناً فصخب الصاخبون واحتجوا فتخلص من القضية بإحالتها إلى حاكم الجليل ... إن حاكم مقاطعة أولى بمحاكمته ولكن هذا الحاكم أعاده دون قرار إلى بيلاتوس الذي رأى أن يستغل عادة شائعة بإطلاق سراح سجين واحد يختاره الناس ليلة عيد الفصح . فاختار مجرماً من أعتى المجرمين اسمه باراباس وقال للجموع .

ــ اختاروا واحداً منهما لنطلقه !

وصاحت الجموع : باراباس ! وأسقط في يد بيلاتوس .

وكرر الطلب فتكررت الصيحة ذاتها. وسأل الجموع ماذا أفعل بالآخر فصاحوا بصوت واحد : ليصلب ! ... ليصلب ! ...

كانوا قد عبئوا كلهم ضد المسيح ... وغسل بيلاتوس يديه من دمه قائلاً : لست بالمسؤول عن هذا الدم وأمر بالتنفيذ ... وسيق إلى الجلجلة ومعه لصان ! ...

إرادة الله وحدها هي التي تدخلت بعد ذلك، وكان ما كان ...

جان دارك

لو سألت مائة عن الفرنسيين ، ألفاً ، مائة ألف ، مليوناً منهم عن الاسم الذي يتصدر البطولة والشهادة في تاريخ فرنسا لما سمعت إلا اسماً واحداً .

ــ جان دارك .

هذه الفتاة التي لم تصل أبداً إلى الثامنة عشرة من العمر ، لا تكاد تخلو قرية أو مدينة فرنسية من ساحة سميت باسمها أو مدرسة أو مؤسسة أو من تمثال على الجواد تهز الرمح أو سفن ضخمة تحمل هذا الاسم... ولا تزال تلهب خيال الفتيان الفرنسيين والكبار على السواء لا بسبب صباها الطري الغض ولا بسبب نهايتها الفاجعة ولا بسبب ما أسقط على قضيتها من الصور والروايات والأساطير .

جان دارك صارت بالفعل أسطورة قومية ! بسبب القضية الكبرى التي أثارتها والتي اختلط فيها الدين بالاحتلال الأجنبي والملكية الفرنسية بالصراع الفرنسي ــ الإنكليزي . وانتهى كل ذلك فوق كومة كبيرة من الأخشاب وسطها فتاة يانعة تحترق ! رجال الدين أسقطوا عليها أهواءهم . ورجال الوطنية أسقطوا عليها آلاء الفكر الغربي والشباب وجدوا فيها رمزاً للفداء والعسكريون حتى العسكريون . نسجوا من ثوبها العسكري الأناشيد . ولكن كيف التقى ذلك كله في جان دارك ؟ ...

قبل خمسة قرون كانت فرنسا توطد نفوذها وملكيتها على أراضيها في حين كانت إنكلترا تنافسها وتحتل أجزاء كبيرة من هذه الأراضي بحكم الإرث

والحرب ... وكان الصراع بين الدولتين حرباً متصلة المعارك استمرت ما بين ١٣٣٧ و ١٤٥٣ ، مائة وستة عشر عاماً وإن عرفت بحرب المائة عام! قبل نهاية هذه الحرب ، حوالي سنة ١٤٣٠ كان اسم جان دارك الفتاة الريفية راعية قرية دومريمي قد أضحى حدثاً دينياً عسكرياً يتداوله المتحاربون من الإنكليز والفرنسيين على السواء. لقد زعمت أن الوحي ينزل عليها. وإنه كلفها لبس ملابس الرجال المتحاربين ، وقيادة الجيش الفرنسي ضد الإنكليز المحتلين الذين كانوا يحتلون مدينة أورلئان ...

وتحول الزعم إلى التصديق لدى الفرنسيين حين قادت جيش ولي عهد المملكة إطاعة للأصوات التي تسمعها ، فحررت مدينة أورلئان سنة ١٤٢٩ وسحقت القائد الإنكليزي تالبوت ثم أخذت ولي العهد المسكين نفسه إلى مدينة ريمس شهرين فجعلته نائباً لملك السموات ، ملكاً على فرنسا باسم شارلي السابع بدلاً من الملك الإنكليزي هنري السادس! صدق الفرنسيون أن الفتاة المسترجلة التي تلبس ملابس الرجال وتحلق مثلهم وتتمنطق بالسيف وتبشع من شكلها عامدة لئلا يتعرض لها أحد بإغراء هي فتاة وفيها شيء إلهي خارق إن لم تكن بالفعل تسمع وحياً. صورتها هذه في كاتدرائية ريمس وهي تحمل العلم ما تزال هي صورتها الشعبية المعروفة اليوم وإن كانت هي تفتخر باسم العذراء!

ولكن جان دارك وقعت بسرعة أسيرة في يد عملاء الجيش الإنكليزي وسيقت إلى مدينة روان عاصمة الإنكليز بفرنسا لترى وجهها الآخر ، وجه الاتهام الرهيب. منطق ذلك العصر كان يعتبر لبس ملابس الرجال كفراً يستحق صاحبه الموت أو يعتبر من يدعي سماع الأصوات الغيبية ساحراً يستحق الإحراق لتخليص روحه من الشياطين!

وعقدت لجان دارك المحاكمة الكنسية الرسمية على التهمتين ما بين ٩

كانون الثاني / يناير / و٢٦ آذار / مارس / سنة ١٤٣١ في إحدى قاعات قصر روان خمسة وأربعون قسيساً كانوا يحيطون في نصف دائرة بالكرسي الصغير الذي تجلس عليه الكافرة الساحرة المكبلة بالأصفاد وصب عليها رئيس المحكمة كوشون أسقف مدينة فوفوا سبعين تهمة تتلخص كلها بالفجور من جهة وبالتدجيل والشعوذة الوثنية من جهة أخرى ولكنها تنتهي كلها بالمحرقة ! لم تستطع أن تنكر أمام حلقة القسس أنها تسمع الأصوات التي تأمرها بأن تضع نفسها في خدمة ملك فرنسا ووقعت جان دارك في الفخ. إنها تدعي أنها تتصل مباشرة بالله دون وساطة القسس والكنيسة وأنها مرسلة من الرب وذلك هو الكفر المطلق الذي أقام المحكمة وأقعدها. ولم تستطع أن تفسر للمحكمة ماهية هذا الصوت ولا السبب في اختياره لها وسيطاً دون غيرها أو دون الملك نفسه !

واتجهت المحكمة إلى ملابس جان دارك التي تخرق القانون الكنسي: فلكل جنس ملابسه فلا تلبس امرأة ملابس رجل ولا رجل ملابس امرأة لأن القيام بذلك تجديف بحق الله، عقوبته الموت، لكن جان دارك قالت أن الله أمرها بهذه الملابس. ولكن الله لا يناقض نفسه إذن فهي الكاذبة على الله ....

وكانت المحكمة نفسها قد أعلنت في أول جلساتها أن جان دارك ستسلم إلى إنكلترا لمحاكمتها محاكمة أخرى غير محاكمة الكنيسة بتهمة مختلفة هي إهراق الدم المسيحي ... الإنكليزي! وسألها رئيس المحكمة جان دي لافوتين:

ــ هل يكره الرب الإنكليز فأجابت لا أعلم مشاعر الرب تجاه الإنكليز كل ما أعرفه أنهم سيطردون من فرنسا !

ــ هل قتلت أحداً. وأجابت لم أقتل أحداً، الله هو الذي أراد !

وأخيراً في ٢٤ أيار /مايو / كان كل شيء معداً للحكم. كان ملك

إنكلترا هناك بنفسه . وكان أسقف ونشستر وهيئة المحكمة وقال النائب العام : جان أنت ساحرة ، كافرة ، خارجة على الكنيسة .

وملكك الذي استرجع عرشه بواسطتك مثلك ، فهل تتوبين ؟

وفوجئت المحكمة بالمتهمة تتوب عن « تصرفاتها المشينة » وقعت اعترافاً بالعودة عن الشعوذة وإنكار سماع الوحي وتعهدت بلبس ملابس النساء لتتمكن من حضور القداس في الكنيسة وتقبل البركة . وعاقبتها المحكمة مع ذلك بالسجن المؤبد .

لكن الحكم لم يعجب السلطات الإنكليزية التي كانت تطلب رأسها ودبروا لها المؤامرة . كان الجو صيفاً والسجن خانقاً فلما نامت أخذوا ثيابها ووضعوا لها الثياب العسكرية ، ثياب الرجال ولم تجد في الصباح ، ما تلبسه غيرها . فسرعان ما أعادوها للمحاكمة !

لقد عادت عن توبتها كما « يعود الكلب فيلعق ما يفرغه » كذلك قالوا لها وقد استحقت الطرد من جمهور الإيمان لأنها ضالة « وخطر على المؤمنين » وصدر القرار في ٢٩ أيار / مايو / بإحراقها حية .

وربطت إلى عمود في الساحة العامة تراكمت فيه كومة هائلة من الحطب . وأوقدت النار ...

ورضي الإنكليز !

بعد خمسة وعشرين عاماً وبعد انتهاء حرب المائة عام وبعد انتصار فرنسا .. أعيدت المحاكمة وأعلنت براءة جان دارك ....

ولكن بعد أن أضحت رماداً ! ....

هذه القضايا الكبرى ...

هذه القضايا الكبرى التي تهز التاريخ هل أتت على نهايتها بعد الأحاديث الطويلة عنها ؟ .

القضايا الكبرى سلسلة لا تنتهي أبداً منذ أبينا آدم إلى آخر سليل من بني آدم .

حتى القيامة إنما هي قضية كبرى ومحاكمة يحكم فيها العظيم الديان يوم تحشرون « وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » ! ...

وإذا كانت بعض القضايا تصغر على الأيام ، وعلى البعد حتى تصبح كالنجوم الضائعة في الفلك ، وبعضها يتحول ، يلبس ملابس جديدة ، وبعض يموت مع الأحقاد الصغيرة التي أوجدته وبعض يصبح مبادئ من المبادئ للناس ، فإن الجماعات الإنسانية في كل الأحوال تظل ذات هموم . وتظل ذات قضايا تثيرها بين فترة وأخرى كأنما لتثير فيها روح الجماعة والتضامن في الدفاع عن ذاتها المادية أو عن عقائدها أو عن تطلعاتها وآمالها . والجماعات تحمل بالحق أو الباطل هذه الهموم وتشترك في الحماسة لها وتجعل منها قضايا كبرى وتهتز فترة على إيقاعها المثير وما هم أن تكون هذه القضايا جرائم وهمية وضعت على أفواه الجموع أو هموماً من صميم ما يثير الناس حتى العظم . الهام أنها تهز ركود التاريخ تسجل غضباته هنا وهناك وتغير مجراه من خلال المصائر المأسوية التي تنتهي إليها تلك الهزات ...

وما هم إلى هذا أن يكون أصحاب القضايا يستحقون مصيرهم

المأسوي أو لا يستحقونه. التاريخ كالقطار السريع لا يقف عند المحطات الصغيرة ولا يهتم بالعابرين، لا يحاكم أحداً ولو أننا نحتكم دوماً إليه. إنه التنين الأعظم الذي يبتلع كل شيء ولكنه لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم إلا ليثرثر؟ لا ليحكم. إنه ما أعاد الاعتبار لإنسان في الغابرين...

القضايا التي عبرت سطوره مرت بأعداد لا تنتهي من الناس: بينهم الأنبياء والمصلحون وفيهم أصحاب المبادئ ومبدعو الأفكار ومنهم أصحاب الرأي كما أن فيهم السياسيين الذين هوى بهم الحظ السياسي إلى الحضيض وفيهم الصوفيين الذين قتلهم كلامهم بلغة غير لغة الناس. والمناضلين عن عقائدهم أو شعوبهم، وعثرت بهم القدم في بعض الطريق، وبعض البهلوانات الذين لم يجيدوا اللعب على الحبال فسقطوا بين الحبال!.. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يلغي اليأس الرهيب الذي مزق هذا على المحرقة أو يمسك الدم المجنون الذي تفجر من شرايين الآخر على المقصلة؟... وماذا يفيد سليمان الحلبي أو سقراط أو الحلاج أن نستنزل اللعنة على جلاديهم؟ وما معنى الرثاء نرسله عبر العصور إلى ابن تيمية أو ابن حزم في السالفين؟ وليست القضية من بعد ها هنا. إنها تأخذ في هذا العصر الذي نعيش منحى آخر. نزول تقنيات الإعلام إلى الساحة أعطى القضايا العامة أبعاداً ما عرفتها من قبل في التاريخ. لقد صفعت التاريخ على وجهه. زادت القضايا أولاً في العدد زيادة هائلة فأنت كل يوم أمام فيض لا ينتهي منها ألف سقراط مبحر وألف جان دارك وألف دريقوس وابن رشد. افتح جريدة الصباح وانظر كم مشكلة تحمل إليك بين قريبة وبعيدة وطريقة ومثيرة؟ كم جريمة متنوعة؟ كم هما من أنحاء المعمورة تثير!

على أنك إذا اقتربت قليلاً من هذه القضايا وجدت من وجهة أخرى أن الصور تهتز وأن رموز الخير والشر فيها يختلط بعضها مع بعض فما تدري أين

يبتدئ وأن ينتهي ذاك ؟ المشكلة أننا لا نستخدم نظاراتنا نحن في الاطلاع على القضايا التي تهمنا سواء محلياً أم في العالم ولكن نستخدم نظارات الآخرين ! وإذا عرفت أن ٩٥٪ مما يصب في حجرك من الأخبار إنما تأتي به وكالات أنباء عالمية أربع لا غير واحدة فرنسية وأخرى إنكليزية واثنتان أمريكيتان وهي التي تلم الخبر تضخمه أو تمسخه. تعيد صياغته بعد أن تضيف إليه ما تشاء وتحذف منه ما تشاء ثم تعيد توزيعه على الزبائن ضمن الإطار الذي تريد. إذا عرفت ذلك عرفت أنك تصاغ، من داخلك الفكري كل يوم لا على الشكل الذي تريد، ولكن على ما يريد لك أولئك الدكتاتورون الأشباح، أسياد الخبر ... وأسيادهم من ورائهم !

وهكذا تقرع الطبول أياماً بعد أيام في صحف العالم كله لقضية زائفة ما تلبث أن تنطفيء الضجة حولها فجأة كما ظهرت ... بعد أن أدت أغراضها ! وتقوم مذبحة كبرى في مكان أو تقع كارثة فلا تنال سوى بضعة أسطر في حين تخصص الأعمدة الطويلة والأخبار لرئيس يدلل كلبه. وقد تثور قضية خطيرة في حيز من الأرض فتطلق للتغطية عليها قضية بديلة تغرقها في محيط آخر أو تشتت عنها الأنظار ... وتدور الدوامة بالناس في سرعة وتتابع القضايا كثيفة لاهثة. وينسينا اليوم أحداث الأمس وتموت القضايا الكبرى مسرعة لأن قضايا أخرى حلت محلها ... وتظل الدوامة على الدوران.

والغريب أن الانسانية كانت على الدوام تتمتع بكمية من الغباء أو من سرعة التصديق تكفي لقيادتها من أذنيها ...

إن العصر الحديث لم يفعل أكثر من زيادة إمكان قيادتنا من الأذنين !

وتنظر حولك لتجد كأنك تعيش في عالم من الكذب المنظم. في عالم كل ما فيه يصنع صنعاً، حتى أتت نفسك فكراً وثقافة واتجاهاً. التلاعب بالعقول هو اليوم صناعة تستخدم العلم كما تستخدم الأساطير لخلق القضايا

الكبرى ولقتلها على السواء، ويتكفل التكرار وإعادة الصياغة والأجهزة القوية كأنما هي النفخ في الصور يوم القيامة في خلط الضلال بالحقيقة والباطل بالعدل ! ...

وتضحك القضايا الكبرى في التاريخ على نفسها لفرط سذاجتها وبساطة عناصرها . ومعطياتها أمام قضايا اليوم . تضحك وتقول :

أيتها العدالة : كم من الجرائم ترتكب باسمك !



كلمة أخيـرة

مرة أخرى ...

هل يغضب التاريخ؟ سؤال عبثي يعدل سؤالك هل يغضب الحجر ؟ التاريخ أي منسرح الزمن اللانهائي هو في حدود العقل الإنساني وإطاره لا يغضب ولا يرضى . إنه يسير أعمى أرعن . صخري القلب والشفاه . يضرب بعكازه ذات اليمين وذات الشمال ولا يأبه . ليس بذي عينين ليرى أو ليذرف الدمع ويأسى . عيناه صخرتان من الصوان . وافتراضنا أن له عقلاً وميزان عدل وحكمة مشتق من إيماننا بحكمة الله وعدله . ولولا ذلك الإيمان لكانت مسيرة الزمن (أو التاريخ) خبطاً في العماء المطلق . القاتل والمقتول على خشباته سواء . والظالم والمظلوم هدف واحد لضحكه الإبليسي والسعيد والشقي هما الطول نفسه عند المقياس الأخير ! إنه الشيطان الذي تستوي عنده جميع الحالات .

ما الذي يبقى ؟ يبقى أن البشر ، عن فضول أو عن تشف أو عن خوف أو فخر يحفظون الذكريات ويروونها في « تاريخ » أو « توريخ » بشري . الجرائم تثيرهم فيغضبون أو يرضون بمقاييس مختلفة لأن ذلك بعض من دفاعهم عن البقاء . والرغبة في إقرار العدل (الإنساني بالطبع) هي المظلة التي يتقون بها انهيار المصائب . أما الغضب التي يستأثر بهم عند أي نازلة فما هو إلا بعض من خوفهم أن تنزل بهم . وإنما تتفجر القضايا الهامة في التاريخ في مثل

هذه الأزمات تجندهم العقائد أو الأيديولوجيات أو الأحقاد أو الحكام مع هذا وضد ذاك فهم فئة في اليمين وأخرى في اليسار وثالثة بين بين . ورشق الحجارة مطر بين الأطراف . والحق عصفور ضائع بين الأرجل في تيه ولا تيه موسى !

ثم ... ثم تدوب الأزمات وتذوب على الأيام ويذهب الجميع في النهاية هباء أو كالهباء إلى ما وراء الغيب لا يتركون وراءهم سوى الذكريات ...

وهل الإنسان والزمن والتاريخ سوى الذكريات ؟

الفهرس





